روز غريّب
معهد الدراسات النسائية في العالم العربي
كلية بيروت الجامعية

ميّ زيادة
التوهّج والأفول

حياتها - شخصيّتها - أدبها - فنّها

مؤسسة نوفل



مي زيادة :
التوهج والأفول


م. سرمد حاتم شكر

روز غريّب
معهد الدراسات النسائية في العالم العربي
كلية بيروت الجامعيّة

ميّ زيادة
التوهّج والأفول

حياتها - شخصيّتها - أدبها - فنّها

مؤسسة نوفل
بيروت - لبنان

الطبعة الأولى
١٩٧٨

© مؤسسة نوفل
شارع سوريا - بناية صمدي وصالحة - تلفون: ٢٥٣٣٠٣ - ص.ب: ١١-٢١٦١ بيروت - لبنان

مقدمة

« النوابغ أفراد اختارتهم الحيـــاة لإدراك وسط يعيشون فيه ، والوصول إلى أقصى رغائبه وألبس نزعـاته . فهم بذلك أقرب من سواهم إلى أغوار الروح الانسانية ، وأسرع فهماً لحركاتها وخصائصها ، وأبرع حذقاً في التعبير عنها . وتقوم كل أهميتهم باتصالهم المتين بالفكر الشامل ، الدائم الابداع ، وكأن قلب الانسانية العظيم ينبض الوقت بعـد الوقت في قلوبهم الصغيرة ، فيظل صدى نبضاته متردداً في صرير أقلامهم [1] » .

بهذه الكلمات تعرّف مي الأدباء الذين طمحت إلى الانسلاك في صفوفهم . وإن كاتبة بلغ فهمها للنبوغ الأدبي هذا المستوى من الرفعة لا يبدو هيّناً الولوج إلى أعماق نفسها وتحليل نتاجهـا وتقييمه . على أني في هذه المحاولة اهتديت بخبرتي السابقة في النقد وبمؤلفات من سبقوني إلى درس مي . واعتمدت مبادىء يميل إلى إهمالها بعض كتّاب السير والأبحـاث الأدبية ، منها التمييز بين

---

(١) مي زياده ، « كلمات وإشارات » ، مؤسسة نوفل–بيروت، ١٩٧٥، ص ٩٨ .

الحقائق والنظريات ، بين ما هو واقعي مرتكز على البرهان وما يقع في دائرة الظنون والآراء التقليدية الشائعة . وفي درسي لنتاج مي ، وازنت بين الأفكار والأسلوب فلم أهمل الواحد في سبيل الآخر .

ولا أقول اني في هذه الدراسة بلغت الغاية التي أصبو إليها . فالنقد الأدبي موضوع تختلف فيه المذاهب والآراء . ويجابه تطورات يحاول فرضها عليه تطور العصر والثقافة . إلا أنه رغم ما يعترضه من صعوبات، يظل بفضل القواعد العامة الكلاسيكية التي ما زالت تبسط عليه سلطانها ، أقرب مسلكاً من نقد الشخصية التي تظل موضوع اختلاف ومثار غموض، مهما تعددت الوسائل التي تسعفنا على استجلائها . وليس جديداً قول فرويد وسواه من علماء النفس ان الأديب والفنان ، بل كل إنسان في الوجود، يحيا حياتين : باطنة تحتوي شخصيته الحقيقية، وظاهرة تعبّر عن شخصيته المصطنعة التي تقولبها الظروف والمواضعات . ونتاج الأديب او الفنان لا يرينا دائماً حقيقته أو شخصيته المكبوتة، رغم التأكيدات التي يطلقها الباحثون حول الموضوع. إن كثيراً مما يقوله الأديب إنما يعبّر عن المثل العليا أو عن الرؤى المثالية التي يطمح إليها ولم يقدر على تحقيقها . أو يعبّر عن رغبته في تقصّي أحوال بيئته والسعي لإصلاحها وتطويرها وتبنّي أحلامها وتطلّعاتها أو مسايرة ميولها واتجاهاتها . وهذا ما يبدو خصوصاً في الأدب الذي تغلب عليه الموضوعية ويتجه اتجاهاً

اجتماعياً أو عاماً إنسانياً . أدب المقالات والرحلات والخطب والمحاضرات والبحث والنقد . هذه الأنواع التي تؤلف الكثرة الساحقة من أدب مي ، في حين ينكمش عندها الأدب الذاتي الى مجموعة مقالات تأملية قليلة العدد ومذكّرات ضئيلة الحجم وضعتها في سن المراهقة وأوائل الصبا . فإذا لجأنا الى الأخبار التي تروي حياة الأديبة وتحدّثنا عن أسلوبها في العيش والتفكير وجدنا في هذه الأخبار اختلاطاً ومبالغة أو وجدناها ضئيلة محدودة ، فيها كثير من الفجوات والحلقات المفقودة .

لهذا كان التركيز في هذه الدراسة على أدب مي . أي على الناحية التي تمثّل نبوغها وفرادتها ، لا على شخصيتها التي تظل مبهمة رغم الجهد الذي بذلته في درسها ورغم الصفحات التي أفردتها لهذا الموضوع .

بهذه المناسبة أودّ التنويه بذكر بعض الذين سبقوني الى معالجة موضوع مي ، واستفدت من مطالعة ما كتبوه . السيدة وداد سكاكيني التي وضعت في سيرة مي وآثارها كتاباً يفيض بالاخلاص. الدكتور جميل جبر الذي بذل مجهوداً كبيراً في جمع ما تفرّق من أخبار مي ومذكراتها ورسائلها . الاستاذ محمد عبدالغني حسن الذي جمع من كبار الادباء الذين عرفوا الكاتبة ، معلومات جزيلة الفائدة أثبتها مفصّلة في كتابه. والاستاذ فاروق سعد الذي اختار من « حدائق مي » باقات تدل على دقة علمية

وحسن ذوق في الاختيار .

ولن يفوتني أن أوجّه في الختام كلمة شكر الى السيدة نجلا عقراوي التي راجعت مخطوطـة الكتاب وأمدّتني بملاحظات قيّمة .

ر. غ.



لمحات من عصر مي

في تلك الحقبة اللامعة ، وفي ذلك العصر المخضرم الذي أنتج عمالقة النهضة الحديثة في الشرق العربي ، عاشت مي زيادة (١٨٨٦ – ١٩٤١) .

ليس من الغلو في شيء أن أدعوه عصر العمالقة ، إذا استطعت أن أبرهن على انه كان كذلك .

أعلام هذه الحقبة ، أدباء كانوا ام علماء ، تميّزوا على وجه الإجمال بالتفرّغ لنشاطاتهم الأدبية والعلمية . فأتيح لهم من وسائل التعمّق والإتقان ما لم يتح للذين جاءوا بعدهم . بذلك أمكنهم ان يجمعوا بين وفرة الانتاج وقوة الإبداع . وقد مهد لهم الطريق عدد من الروّاد الكبار الذين وضعوا حجر الأساس في بناء النهضة . ولدوا في النصف الأول من القرن التاسع عشر وأدركتهم الوفاة في النصف الثاني . كان أولهم ناصيف اليازجي (١٨٠٠ – ١٨٧٠) الذي وضع سبعة مؤلفات في اصول اللغة العربية لا تزال حتى اليوم مرجعاً للطلاب والدارسين ، وجدّد بكتابه « مجمع البحرين » براعة الحريري في فن المقامات . ثانيهم رفاعة الطهطاوي ، المتوفى سنة ١٨٧٣ ، الذي ترأس بعثة محمد

علي العلمية الى باريس وتفرّغ لنقل العلوم الغربيـــة ، لا سيما الجغرافية الى العربية . الثالث بطرس البستاني (توفي ١٨٨٣) الذي يكفي لتعريفـــه أنه صاحب « محيط المحيط » ، المعجم الذي لم يقم بعده معجم يضارعه دقـــةً وشمولاً . و « دائرة المعارف » التي تحدّى بها منفرداً دائرة المعـــارف البريطانية . والرابع احمد فارس الشدياق (توفي ١٨٨٧) ، صاحب الأبحاث المبتكرة في خصائص اللغة العربية ، ومنشىء أول جريـــدة عربية في عاصمة السلطنة العثمانية : « الجوائب » التي جاب بهـا « صقر لبنان » أقطار العرب .

أما المخضرمون الذين اضطلعوا بعملية البنـاء ، ففي رأسهم يأتي ابراهيم اليازجي ، بكر الشيخ ناصيف ووارث نبوغـــه اللغوي . لكنه لم يقصر نشاطه على الابحاث والمؤلفات اللغوية التي جعلته مرجعاً للأساتذة والطلاب في عصره بل مـــارس الصحافة الأدبية والترجمة وكان بأسلوبه النثري المحكم إماماً من أئمة الإنشاء المجدِّد . واستهوته العلوم الحديثـــة فوضع فيها أبحاثاً ومصطلحات جديدة ونبغ في الرياضيات والفلك فانتخب عضواً في الجمعيـــة الفلكية التي كان لها مراكز في باريس وأنفرس والسلفادور .

ومن المخضرمين المشاهـير ، سليمان البستاني الذي اقتحم وحده عملاً يستعصي على الجبابرة هو ترجمة اليـــاذة هوميروس

شعراً في ستة عشر ألف بيت صدَّرها بمقدّمة تمثّل خطوة رائدة في ميدان النقد العلمي .

وجرجي زيدان ، أول من كتب تاريخ الحضارة الإسلامية والآداب العربية بأسلوب علمي حديث . وضع اكثر من عشرين رواية تلخّص تاريخ العرب للناشئة ولعامة القرّاء بأسلوب تسيغه أذهانهم وأذواقهم .

وزميله يعقوب صروف ، منشىء « المقتطف » المجلة العلمية الفريدة في نوعها ، التي عاشت اكثر من سبعين عاماً ، ولم يظهر حتى اليوم مجلة علمية تضاهيها في رفعة المستوى وفي ما قدّمته للنهضة العلمية من خدمات .

وشوقي الشاعر الخالد بحكمه وقصائده المختارة – الذي شق طريق المسرح الشعري الغنائي بمسرحيات لم يستطع احد ان يعارضها بعده .

وحافظ ابراهيم صاحب القصائد الوطنية المفعمة بروح الصدق والإخلاص . وخليل مطران الذي تلمذ له المجددون من الشعراء ، منهم أحمد زكي أبو شادي مؤسس « جماعة ابولو » . كما تلمذ له المبدعون في الشعر القصصي الطويل النفس ، أمثال شبلي ملاط والأخطل الصغير .

وأمين الريحاني الذي ارتاد الأقطار دارساً مستطلعاً ، كما

ارتاد الكتابة باللغة الانكليزية . خاطب الغرب كما خاطب الشرق . تكلم فكان لكلامه دوي ردّدته الأجيال . أدخل على العربية اسلوب الشعر المنثور وفتح برحلاته وأخبارها المتعة أقطاراً عربية مجهولة .

وجبران ، عميد « الرابطة القلمية » ، الذي فلسف الحياة والموت برسومه وكتاباته . عايش الرؤى والأحلام البعيدة المدى وسبك رؤاه باسلوب شعري استهوى الغربيين والشرقيين . فصار اسمه على كل شفة وصارت حياته اسطورة .

وأبو ماضي الذي تغنّى بجداوله وخمائله سكان الأقطار العربية من شرقها الى غربها . وميخائيل نعيمه الذي راجت أشعاره الصوفية كرواج قصصه الواقعية ، وكان في « غرباله » رائداً للنقد الحديث .

ونقولا فياض أمير المنابر والشاعر الرومنطيقي الذي طلّق الطب لشغفه بالشعر .

ووديع البستاني ، نسيب سليمان البستاني ، الذي جاراه في اقتحام المرامي البعيدة بترجمته « المهابراتا » ، الملحمة الهندية الخالدة .

وماذا أقول عن عمالقة آخرين نظير قاسم أمين ، رائد تحرير المرأة في كتابه الذي هزّ مصر هزّاً عنيفاً .

وطه حسين أعجوبة القرن العشرين . وتوفيق الحكيم المبدع في قصصه ومسرحياته. والمازني والعقاد، والرصافي والزهاوي، وبشاره الخوري، وسواهم من اصحاب الانتاج الضخم والرؤوس الشامخة في موكب النهضة ..

****

لا ننسَ أنه كذلك عصر رائدات النهضة النسائية : منهن السابقات اللواتي ولدن في النصف الأول من القرن التاسع عشر وأدركن مطلع القرن العشرين ومهّدن لأخواتهن الطريق. عائشة التيمورية الشاعرة صاحبة ديوان « حلية الطراز » . زينب فوّاز العاملية ، مؤلفة « الدر المنثور في طبقات ربات الخدور » . وردة اليازجي التي طبع ديوانها « حديقة الورد » عدة مرات . ومريانا مراش الموسيقية وصاحبة ديوان « بنت فكر » .

ومنهن مجايلات مي : هدى شعراوي زعيمة النهضة النسائية في مصر ، صديقة مي وزميلتها في النشاطات الاجتماعية . ملك حفني ناصف ، أو « باحثة البادية » ، مؤلفة « النسائيات » التي كتبت فيها مي نقداً مستفيضاً . ماري عجمي الشاعرة الدمشقية وصاحبة مجلة « العروس » . لبيبة هاشم ، الصحافية اللبنانية صاحبة « فتاة الشرق » . عفيفة صعب منشئة مجلة « الخدر » . جوليا طعمه دمشقية صاحبة « المرأة الجديدة » ، صديقة مي وناشرة كتاب في وصف الحفلات التكريمية التي أقيمت لها في

لبنان وسوريا سنة ١٩٢٢ . وسلمى صايغ مؤلفة « النسمات » التي راسلت مياً وبادلتها الصداقة والإعجاب .

وهناك أديبات لبنانيات الأصل ، معاصرات لميّ ، أقمن في مصر وتلقّين فيها ثقافتهن ، وكتبن باللغة الفرنسية حين كانت هذه اللغة مزدهرة في الاسكندرية والقاهرة ، تتعهدها بالعناية والاهتمام معاهد ومجلات فرنسية ذات مستوى رفيع . جان أرقش ، مؤلفة « مصر في مرآتي » و « الأمير فخر الدين او الأمير ذو الصليب » ، هذه التي امتدح كتاباتها طه حسين في « فصول في الأدب والنقد » وتأسف لأنها لم تكتب بالعربية .

ايمي خير ، أيضاً من صديقات مي ، لبنانية الأصل ومؤلفة قصص فرنسية ذات طابع لبناني .

* * *

لن أقف طويلا عند عوامل الازدهار العلمي والأدبي وقد توسّعت في وصفها المطوّلات التي أرّخت لعصر النهضة ، لكني أشير الى العامل الاساسي وهو الاحتكاك القوي المباشر بين الغرب والشرق العربي عن طريق حملة نابليون وانشاء الجامعات الغربية ومراكز النفوذ الثقافي الغربي في بيروت والقاهرة والاسكندرية وسواها من مدن . يضاف الى ذلك تأسيس المدارس الارسالية في الاقطار العربية وتنظيم البعثات الثقافية الى الغرب ونشاط

حركة نشر الكتب القديمة . وما رافق هذا من نهضة الصحافة بأنواعها : السياسية والادبية والعلمية .

ولا بد من التنويه بالجهود التي بذلها محمد علي وخلفاؤه لنشر العلم والثقافة في مصر ، وفتح المجال امام ادباء الاقطار العربية الاخرى ، لاسيما لبنان وسوريا ، للمساهمة في بنـــاء النهضة المصرية .

يؤثـَر عن الخديوي اسماعيل قوله: « أريد أن اجعل من مصر قطعة من اوروبا » والمعروف انه بنى دار الاوبرا المصرية وفي عهده نشأ المسرح المصري على ايدي اللبنانيين والسوريين، وأمّت مصر الفرق التمثيلية الاجنبية ، وأُرســـل الممثلون الناشئون ، ومنهم جورج أبيض اللبناني الاصل ، لاتقان الفن في باريس .

★ ★ ★

يجب ان نذكر كذلك أن الادب الغربي الذي نهل من معينه ادباء تلك الحقبة هو ادب اوروبا الغربية في عصوره الكلاسيكية والرومنطيقية المعتدلة . فـلا نلمح عنـــدهم تأثيرات الرمزيـين والسورياليين وخلفائهم من شعراء اللاوعي واللامعقول . لذلك كان أدبهم من النوع الذي يثبت للزمن ، بريئا من العيوب التي انزلق اليها المتطرفون ، يحمل تأثير الرومنطيقيين الكبار امثال هوغو ولامرتين وموسيه وجورج صانـــد وبايرون وشلي ومن جرى مجراهم . المجدّدون بينهم اعتدلوا في التجديد والمتأنقون

اعتدلوا في التأنق ، والتزموا حسن الذوق ونجحوا في التوفيق بين القديم والجديد . لم يستعبدوا للنظريات الغامضة والنزوات الغريبة التي كانت في الغرب قصيرة العمر . فكان غموضهم واضحا وثورتهم بنّاءة وعنايتهم بالفكرة تضاهي عنايتهم بالاسلوب .

وكان منهم ادباء نضال - كما دعاهم مارون عبود في « رواد النهضة الحديثة » ، اتخذ الوعي الاجتماعي عندهم أبعادا واضحة المعالم . منهم محمد عبده ، أديب اسحق ، شبلي الشميّل ، الكواكبي ، فرنسيس مرّاش ، المويلحي ، ولي الدين يكن ، المنفلوطي ، فرح انطون ، الريحاني وغيرهم .

ان الادب الاجتماعي الذي ازدهر في عصر مي نبع من صميم الحاجة وعبّر عن تحسس قوي لآلام المجتمع ورغباته لم يرتبط اصحابه بمذهب او حزب ولم يكونوا دعاة للسياسات المتناقضة والفلسفات العنيفة التي جرفت الصحافيين والادباء بعدهم .

واذا طالعنا آثار اولئك الروّاد لمسنا الشجاعة الادبية وحرية الفكر والمحاولات الجريئة في ما كتبه الكواكبي ، مؤلف « طبائع الاستبداد » وزملاؤه محمد عبده وشبلي الشميّل وفرح انطون . واذا التفتنا الى الشعراء رأينا شعر شوقي مشحونا بالقصائد والامثال الوطنية والاجتماعية التي يتداولها اليوم

طلاّب المدارس وسواهم . وما اكثر القصائد القومية والاجتماعية التي نحفظها لحافظ ابراهيم . اما الرصافي والزهاوي فقد وقفا معظم اشعارهما على توعية الناشئة وبث روح التجدد والانفتاح في عامة الناس ، ولا نعرف للمعاصرين شعرا كشعر المخضرمين فيه من قوة الروح القومية والانسانية ومن جمال السبك ومتانته ما يهيّئه للذيوع على كل لسان .

في الحملة التي جرّدها دعاة الالتزام على المخضرمين ، ورد قولهم ان هؤلاء ، وان عالجوا الموضوعات الاجتماعية وقضايا الساعة ، ظلّوا بعيدين عنها جسما وروحا . لانهم لم يختلطوا بالشعب ولم يشاركوه في نضاله ، بل كانوا مترفعين ، انعزاليين ، ينظرون الى الجماهير من عل . يحيون حياة ترف ويلازمون اصحاب القصور .

هذا الزعم باطل . لأن شعراء العصر المخضرم اجمالا لم يكونوا من اهل الثروة ، اذا استثنينا منهم شوقي الذي تعهّده الخديويون برعايتهم ، وفضلهم عليه لا ينكر . اما حافظ ومطران فعاشا عيشة فقر وحرمان . كذلك الرصافي الذي مارس التعليم لتحصيل معاشه ومات فقيرا . اما الزهاوي فرغم نشوئه في بيت يسر ووجاهة ، عاش حياة قلقة ، مناضلة ، يقارع الخصوم الذين استنكروا جرأته وصراحته ، فاضطهدوه وأذاقوه ضنك العيش .

اما الناثرون امثال المنفلوطي وولي الدين يكن وقاسم امين والمويلحي واولئك الذين سبق ذكرهم من ادباء النضال ، فجميعهم تكرّسوا للنقد والاصلاح الاجتماعي وخاضوا فيه الى ابعد الحدود . واما ادباء المهجر فرغم تركيزهم على موضوعات فلسفية انسانية ، لم يهملوا النقد الاجتماعي بل عالجوه في القصص والمسرحيات والخطب والمقالات وكانوا دعاة التطوير والتجديد في مختلف المجالات .

★★★

في تلك الحقبة الخصبة نشأت مي . في ظل أبوين مثقفين كانت وحيدتهما فبذلا كل ما في وسعهما لتثقيفها وانماء مواهبها . في الناصرة ، مسقط رأسها ، تلقّت علومها الابتدائية في مدرسة الراهبات اليوسفيات . مدرسة اجنبية كانت تعنى بتدريس الفرنسية والعربية . وعن الناصرة تتحدث مي في مذكراتها فتناجيها قائلة :

« ايه يا ناصرة ، لن أنساك ما دمت حية . سأعيش دوما تلك الهنيهات العذبة التي قضيتها في كنف منازلك الصامتة . وسأحفظ في نفسي الفتية ذكرى هتافات قلبي وخلجات اعماقي » .

« لقد كنت لي مدينة الازاهر العذبة ومجال التنعم بأطايب الاوقات في وجودي . » (١)

---

(١) « مي في مذكراتها » ، جمعها جميل جبر ، دار الريحاني ، بيروت ، لاتا . ، ص ٢٣ .

في بعض تلك المذكرات ، تخبرنا انها كانت تحسن ركوب الخيل رغم حداثه سنّها فتقول عن نفسها : « وقد قطعت على ظهر الجواد سهولا وجبالاً ، نبضت حياة التاريخ تحت الارض منها وبين الاشجار وعلى الصخور وحول القمم . مـــا شهدت جلال الطبيعة الا عادت اليها تلك الذكريات مع صدى الاغاني الوجدانية التي ينشدها اهل المضارب في الظلام ، تنير بين ستائر الخيام أنة جزع وغرام . والآن ها هي امام البحر تتذكر فتنشد من الالحان البدوية ما تهتز له اوتار قلبها »[1].

وحين تكتب ميّ دراستها عن عائشة التيمورية تذكـر ان بعض ما حفزها على هذه الدراسة موّال لعائشة سمعته يغنّى في الناصرة في حفلة زواج وجيه سريّ ، نصب فيها لمهرجان الفرح صوان عظيم على سطح الدار . فما يخيم الظلام الا وتأخذ تعزف الآلات الشرقية تحت الخيمة الوضّاءة بتألـــق الانوار ومعالم الزينات الغاصّـة بوجوه القـوم وأعيانهـم من تلـك البـلدة وضواحيها[2] .

ثم تمعن مي في وصف تأثير ذاك الموال في نفسها وكيف انها استشعرت به بعض ما فهمته بعدئذ من نجوى الموسيقى الشرقية . الى ان تقول :

(١) « مي في مذكراتها » م . س. ص ١٤٢ - ١٤٣ .
(٢) « حلية الطراز » ديوان عائشة التيمورية ، القاهرة ١٩٥٢ ص٢٧ .

« أتتصورون أثر هذا الرسم في مخيّلة صغيرة شديدة التيقظ وفي نفس ليّنة ترتعش امام مظاهر الفن والجمال حتى لقد تبكي لمرور سحابة زاهية الالوان في الافق !... »

هذه النتف المقتطفة من مذكرات حداثتها ، ان دلت على شيء ، تدلنا على رهافة احساسها وعلى تنبّه ميلها الموسيقي في جو الاغاني البدوية وحفلات الغناء الشعبي .

من الناصرة انتقلت الى دير عينطوره ، حيث كانت مدرسة راهبات الزيارة تجاور مدرسة الآباء العازاريين ، الذين كان احدهم مرشدا للراهبات والتلميذات . وقد اشتهرت مدرسة العازاريين آنذاك برفعة مستواها التعليمي وتخريجها لعدد كبير من رجال الادب والعلم البارزين في لبنان . من ذلك يمكننا الاستنتاج بأن مدرسة راهبات الزيارة اصابت مقدارا من الاشعاع الثقافي الذي انبعث من معهد الآباء العازاريين .

في مدرسة عينطوره تلقت مي توجيهها الادبي وفي جوّها الرومنطيقي الحالم تفتّحت موهبتها الشعرية . ومن خلال مذكراتها القليلة نستشف التأثيرات التي علقت بنفسها من منظر البستان المزدحم بالاشجار الباسقة والاروقة المرمرية الطويلة حيث الراهبات يتسلّلن كالاشباح ، خفيفات الخطى ، في ملابسهن الفضفاضة .

هناك أتيح لها ان تتلقى ثقافة عامة متينة . ان تتقن العربية

وعددا من اللغات الاجنبية : اللاتينية ، الفرنسية ، الانكليزية ، فضلا عن الموسيقى والغناء

كانت تلقى عطفاً من « المرشد ذي الصوت الموتـــر » وتشجيعا خاصا من المعلمات اللواتي توسّمن فيها ذكاء خارقا ورغبة شديدة في الدرس والتحصيل . فكنّ يكلّفنها إلقاء الخطب وتمثيل بعض المسرحيات القصيرة . وقد أظهرت تفوقا في الالقاء بالفرنسية والعربية وظفرت بالجائزة الاولى في الانشاء بهاتين اللغتين .

بعد مغادرة عينطوره واصلت مي الدرس الذاتي ، لا سيما أثناء اقامتها في مصر . تمكنت من اتقان الايطالية والالمانية وألمت بالاسبانية . وكتبت مذكراتهـــا واشعارهـــا بالفرنسية وترجمت قصصا عن الفرنسية والالمانية والانكليزية .

أمّت مصر مع والديها يوم كانت مصر كعبة العلوم والآداب ، ومنتجع اهل الفكر والطموح . هناك نمت مواهبها على ايدي نخبة من الادباء والمفكرين ، كان منهم يعقوب صروف ، صاحب « المقتطف » ، الذي أحاطها بعناية ابوية . وأحمد لطفي السيّد الذي أطلعها على كنوز العربية وحبّب اليها الكتابة بلغة الضاد .

في الجامعة المصرية اتصلت بكبار اهل العلم والاستشراق فأكبّت على درس التـــاريخ والفلسفة والفلك القديم والعلوم العصرية .وحين رسخت قدمها في ميدان الكتابة والخطابة

ولقيت مقالاتها ترحيباً في كبريات الصحف والمجلات ، أنشأت صالتها الادبية او « الندوة » التي جدّدت بها عهد سكينة بنت الحسين والمركيزة دو رمبوييه . فاستطاعت ان تجتذب نحو ثلاثين من افاضل الادباء وأهل الفكر ، قصدوا الندوة مساء كل ثلاثاء لينشقوا من صاحبتها عبير الظرف والايناس وتنطلق من احاديثهم ومساجلاتهم شرارات الوحي وآيات الفكر .

كان عصرها عصر الادب الانيق الذي امتاز اصحابه بطرافة القول والحديث ، والتأنق في الرسائل التي وجّهوها بعضهم إلى بعض او عبّروا فيها عن خواطرهم ، على مثال المترسلين في العصر العباسي . فرسائل الرافعي والعقاد والريحاني ومي وجبران نماذج من الادب الرفيع الذي يغذّي الفكر والشعور .

وكان كل اديب يبدأ حياته بنظم الشعر ويحاول ارتجاله في المحافل الادبية ، مجاريا بذلك رغبة الناس التقليدية في الشعر واعجابهم بمن يقدر على ارتجاله .

أذكر اني قرأت كتابا صدر في تلك الحقبة (١٩١٢) ، جمع فيه الناشر كل ما قيل من خطب وقصائد في تكريم المغتربة العائدة الى لبنان ، السيدة الزحلية نجلا صباغ فاخوري ، التي اشتهرت باحسانها وأدبها . يقول ناشر الكتاب عن تلك الحفلة :

« تبارى الخطباء والشعراء في القاء القصائد والمقطوعات والخطب ، بعضها مما سبق تهيئته ، والبعض الأخر مرتجل ومن

وحي الساعة . وطالت الامسية حتى ساعة متأخرة من الليل وطال انشغالي بنقل ما قيل ، حتى كلّت يدي وجف الحبر من الدواة ، ولم تجفّ القرائح ولم يصبها الكلال » .

* * *

آخر ما نذكره عن الدور المخضرم أنه لم يكن عهد تخصّص في لون من الوان الادب . فاكثر اديائه مارسوا الشعر والنثر والصحافة والنقد . واحيانا القصة والمسرحية .

ومي تمثّل عصرها هذا في جمعها الموفّق بين ثقافتين وفي تعدّد اهتماماتها وعدم اختصاصها بفن من فنون الادب . فهي شاعرة ، صحافية ، خطيبة ، ناقدة وباحثة . وفي بعض الاحيان ، تعالج القصة والمسرحية .



شخصية مي

قد يكون أفضل مرجع لمن يريد التعرّف الى مي ودرس أخلاقها في سنوات الحداثة ، أن يطالع المذكرات التي كتبتها في مدرسة عينطوره ، في غابات لبنان ، وفي السنوات الاولى التي تلت قدومها الى مصر . كانت سنّها إذ ذاك تتراوح بين الخامسة عشرة والثانية والعشرين ، فنرى فيها فتاة رومنطيقية المنزع ، تشكو الوحدة التي تعاني منها كل فتاة نشأت وحيدة في بيت أبويها . مذكّراتها تدور حول نفسها ، تستعرض انطباعاتها ومشاكلها الذاتية ، فلنسمعها تصف نفسها ، في «دفترها الصغير» تحت عنوان « يوميات عائدة »:

« كانت عائدة ذات طبيعة غنيَّة ، خصبة ، تحب الجري واللعب والضحك ، وأي فتاة لا تحب ذلك ؟ وتبتكر للهو أساليب طريفة ترفعها في عيون رفيقاتها . لكنها كانت وحيدة الروح ، وكثيراً ما كانت تنزح عن ميدان اللعب الى الحجر المنفرد في أطراف الساحة ، فتجلس هناك ناظرة الى البحر البعيد ، الى زرقته الغيماء واستدارة الافق المخيّم عليها ، متمتعة بجمال الطبيعة ومتهيّبة مظاهر روعتها جميعاً .. » .

« لقد استيقظت باكراً هذا الصباح ، فلبثت في سريري لا ابدي حراكاً وأنشأت أتأمل ... ما هذه الحياة التي نحياها ؟.. كنت اكرّر لنفسي : ما هذه الحياة التي قال عنها المرشد انها مشكلة المشاكل ، وأنها سريعة سرعة السهم المنطلق في الفضاء ؟ ويقول عنها أشياء اخرى تذهلني ولا أفهمها .

« انتقلت من تأمل الى تأمل حتى انتهيت الى فكرة الموت . كم ذا سمعت أن هذه الفكرة كانت تعزية للقدّيسين ورجاء لهم ... انتشرت فيّ اليوم انتشار الألحان في الارغن العازف . ولكن تلك النظرة الجافية التي أرسلتها [1] إلي في الظهر ونحن خارجات من المائدة ! هي تلك النظرة التي حملتني على البكاء وأحزنتني طوال النهار .. كيف أتخلص من شعوري ؟ كيف أفنيه ؟ كيف أصير صخرة ؟ حدّثيني أيتها الحجارة العسيرة ، كيف صرت حجارة ؟..

« وانتشر شذا البخور في فضاء المعبد ...

« جثوت على سريري وطلبت الموت ، لا جبناً ولا ضعفاً ، بل شوقاً الى السماء الزرقاء حيث الطهر والنقاوة والجمال والكمال ....

* * *

(١) إحدى المعلمات .

« أؤمن بإله واحد .

« نعم يا إلهي أؤمن بأنك واحد لا إله إلا أنت وأنك أنت خلقتنا وأنك صالح ، وأن الحياة جميلة !

« هذا يوم بهي !

« الموسيقى في هذا المساء على أبدع ما عهدت .

« لا بد أن يكون في السماء جوقة موسيقية بارعة تعزف من الألحان الربّانية ما لم تسمعه من هذه الأرض أذن ولم يخطر منه شيء على بال بشر ! »

***

هذه المقتطفات من مذكراتها في عينطوره تكشف لنا نفسية فتاة لعوب ، خفيفة الروح ، تأنس بالعشرة ، لكنهـــا تميل الى الوحدة والتأمل والاختلاء بالطبيعة . لماذا ؟ لأنهـــا مفرطة الحساسية ، تخشى إغضاب الناس وإزعاجهم ، فتهرب الى ذاتها أو إلى الطبيعة أو إلى دفترها ، خوفاً من المشاكل التي تثيرها في وجهها معاشرة الناس .

سريعة التأثر بأقوال المرشد وعظاته ، يدفعها ذلك إلى التأمل والتساؤل عن سر الحياة والموت ، واللجوء الى الإيمان والصلاة لعلها تجد فيهما جواباً . ذات نفس حائرة تتجاذبها عوامل الحزن

والسرور ، السخط والرضى . شديدة الإحساس بالأشكال الطبيعية والألوان والأصوات والعطور . تخاطب دفترها ، تخاطب الصخور ، لأنها على مثال الرومنطيقيين ، تبثّ الحياة في الجماد . أفكارها تجاوز الواقع ، تنقلها الى عوالم خيالية تسبح فيها الملائكة الأطهار . من خلال هذه الصفات وما أشبهها ، نستشف موهبتها الكتابية المتبرعمة .

لكن لميّ مصادر أخرى من مصادر البهجة والعزاء : هي الموسيقى والكتب .

الموسيقى التي تخاطبها بلغة لا شيء أقرب منها إلى إدراكها وعواطفها . التي تنيلها « أجنحة وتطير بها إلى عوالم لا يطرقها غيرها » .

والكتب التي تغرق في مطالعتها حتى تنسى نفسها وتنسى الوجود . لا سيما كتب شعرائها المفضّلين . شعراء الرومنطيقية الذين يأسرون قلوب الفتيان والفتيات بروعة خيالهم ودقة شعورهم : هوغو ، لامرتين ، بايرون ، شلي ، شلر ، ماكس مولر وغيرهم .

ومع إيثارها لهؤلاء ، لا تحصر فيهم متعتها بل تدفعها الرغبة في توسيع أفقها إلى إنعام النظر في جميع مدارس الأدب على اختلافها . تطالع شكسبير ، فولتير ، روسو ، ديكارت ، بوسويه ، كورناي ، راسين ، موليير ، فينلون ، مدام دوستال

مذام دوسفينييه . فلا تبلغ سن الشباب إلا وقد وعت تواريخ الامم وأخبار الشعوب، إلى جانب حذقها لفن الموسيقى والغناء. وقد حدا بهـا « جوع فكري لا يكتفي وعطش روحي لا يرتوي »[1] إلى دخول الجامعة المصرية سنة ١٩١٦، وقد ناهزت الثلاثين من العمر ، فعكفت على درس الفلسفة والفلك والأدب العربي ، كما واصلت درس الموسيقى على معلم خصوصي ، مستكملة بهذه الدروس ما فاتها تحصيله بنفسها او في معهد دراستها الثانوية .

***

في سنة ١٩٠٨ كانت نقطة التحول في حياة مي. انتقلت مع والديها إلى القاهرة ، كما سبق القول ، صبية حلوة الملامح، وافرة الجاذبية ، متوقدة الذكاء ، سنتها تبلغ الثانية والعشرين . هناك ينخرط والدها ، الياس زياده ، في سلك الصحافة ، هاجراً مهنة التعليم التي مارسها في الناصرة .

وفيما كان الوالد منصرفاً إلى تحرير مجلة « المحروسة »[2] التي كان صاحبها وجيهاً قاهرياً يدعى ادريس راغب باشا ، كانت مي تعطي بنات هذا الوجيـــه دروساً في منزلهن ، وتنشر في

---

(١) من رسالة إلى جوليا طعمه دمشقية تصف فيها نفسها .

(٢) « المحروسة » لقب القاهرة .

الجريدة المذكورة مقالات عربية وفي مجلة « بروغريه » Progrès الفرنسية مقالات وأشعاراً فرنسية .

لا يلبث السيد ادريس راغب أن يهدي والد مي مطبعة الجريدة عرفاناً لجميل الفتاة وإقراراً بفضلها على بناته . وينشرح صدر مي ، لأنها استطاعت أن تدخل الفرح الى قلب والديها . ويكافئها الوالد بنشر باكورة أشعارها ومذكراتها الفرنسية تحت عنوان « أزاهير حلم » مرفقة بـ « مذكرات عائدة » وبتوقيع « ايزيس كوبيا » وهو الترجمة اللاتينية لاسمها : ماري زيادة[1] .

كان ذلك سنة ١٩١١ . وقد أحدثت أشعارها الفرنسية ضجة في دوائر الأدب وتناقل الناس اسم صاحبتها ، ورأى فيها أهل الذوق والمعرفة دلائل أديبة مطبوعة. فتطوّع احد اصدقاء أبيها ، الاستاذ احمد لطفي السيد، المفكّر والأديب ، بإرشادها إلى وسائل إتقان العربية ، أملاً بأن تتحوّل عن الفرنسية إلى لغة الضاد. حبّب إليها الأدب القديم وقادها إلى تذوّق روائعه، لا سيما القرآن الكريم الذي فتنها بنفسه الشعري وسموّ عبارته.

من ذلك الحين ، ركزت اهتمامها على العربية وأخذت تمارس الخطابة والكتابة بهذه اللغة .

(١) « ايزيس » اسم الالاهة المصرية زوجة اوزيريس وقد رمزت بها الى العذراء مريم التي حملت اسمها . و « كوبيا » لفظة لاتينية بمعنى «زيادة» وقد أبدلت ماري اسمها بمي ، مكتفية بالحرفين الاول والاخير منه

كانت أولى خطبها في حفلة اقيمت لها في لبنان، ضهور الشوير، في صيف ١٩١١ ، بمناسبة تدشين « العرزال » الذي كانت تمضي فيه خلواتها والذي دعته « الكوخ الأخضر » .

ولفتت الأنظار بمقدرتها الخطابية يوم وقفت ، سنة ١٩١٣ ، في حشد كبير من الأدباء والمتأدبين ، تلقي مقالة أرسلها جبران خليل جبران لتتلى في الاحتفال المقام للشاعر خليل مطران ، بمناسبة إنعام الخديوي عليه بوسام رفيع . فألقت المقالة وعقّبت عليها بخطاب من تأليفها . وقوبل إلقاؤها وخطابها بتصفيق حاد وهتاف طويل . وفي مذكرات طه حسين إشارة الى هذه الحفلة جاء فيها :

« لم يرض الفتى عن شيء مما سمع إلا صوتاً واحداً سمعه . كان الصوت نحيلاً ضئيلاً وكان عذباً رائعاً . وكان لا يبلغ السمع حتى ينفذ إلى القلب . هذا الصوت كان صوت ميّ »[1] .

بسمت الحياة لميّ. وتعددت مقالاتها العربية في «المقتطف»، و « الهلال » و « المحروسة » وغيرها من كبريات الصحف .

نشرت سوانحها متتابعة في « الهلال » ابتداء من سنة ١٩١٢ وترجمت عن الفرنسية والانكليزية والألمانية ثلاث روايات بين

---

(١) مذكرات طه حسين، ط ٢ ، نشر دار الآداب، بيروت ، ص ٤٥.

١٩١١ و ١٩١٢ .

وتعدّدت رحلاتها الصيفية إلى لبنان وفلسطين قبيل الحرب العالمية الاولى ، زارت مرابع طفولتها ومسارح لهوها ، و كتبت عن تلك الرحلات أحاديث ملأى بالطرافة والمرح والفكاهة نشرتها في الصحف آنذاك ، وجمعتها فيما بعد (١٩٢٤) في كتاب دعته « الصحائف » .

في خلال ذلك ، عنيت بإنشاء ندوتها الأدبية (١٩١٤) التي لقيت رواجاً هائلاً وعاشت نحواً من عشرين سنة . وغرقت في نشاطاتها المتعددة غرق المتعبّد في فروض عبادته . كانت تنتقل من خطبة إلى محاضرة ، من مقالة إلى جلسة أدبية ، من الإسهام في مشروع اجتماعي إلى تحرير رسالة . وفي أثناء الحرب العالمية الاولى (١٩١٦) عاودها الشوق إلى مقاعد الدراسة فدخلت الجامعة المصرية حيث واظبت على الدرس مدة سنتين . وبين ١٩٢٠ و ١٩٢٤ أتمّت نشر معظم الكتب التي دأبت على تأليفها منذ ١٩١٢ فكانت تلك الفترة أخصب سني حياتها وأوفرها لمعاناً وعطاء .

أي تطوّر حدث في شخصية مي بعد انتقالها إلى مصر ؟

الفتاة الرومنطيقية التي عرفناها في « أزاهير حلم » تميل إلى العزلة ، وفي مقدمة « ابتسامات ودموع » ، الكتاب الذي نقلته عن الألمانية سنة ١٩١١ ، « تكتئب لغير ما سبب » ، أصبحت

فتاة قوية الشخصية ، تخطب في الجماهير فتسحرهم ، تستقبل في ندوتها حشداً من الادباء ، فتخاطبهم واحداً واحداً وتدير دفة الحديث بينهم بلباقة وبراعة يحسدها عليها كبار أهل الفصاحة واللسن . يقول العقاد منوهاً بهذه المقدرة الغريبة :

« كنا نحو ثلاثين كاتباً وأديباً ووزيراً . اجتمعنا للتشاور في الاحتفال بالعيد الخمسيني للمقتطف . وكان اجتماع هذا المجلس عندها في إبان المنازعات السياسية التي وصلت بكثير من الكتاب إلى حد التقاطع والعداء ... فقضينا عندها ساعتين نسينا فيهما أن في البلد أحزاباً أو منازعات ، وذلك بفضل براعتها في التوفيق بين الآراء والأمزجة ، وقدرتها على توجيه الحديث إلى أبعد الموضوعات عن الخلاف والملاحاة . وما أحسب أن أحداً غير مي قد استطاع الذي استطاعته في تلك الأيام »[1] .

ويقول الدكتور منصور فهمي واصفاً مقدرتها الخطابية :
« لا أعدو الحق إذا قلت أنها كانت محاضرة من أرقى طراز وأعلى غرار . ولعل أسباباً اصطلحت على تفوقها في ذلك الميدان . فقد كان لها من عذوبة صوتها ، وحسن ادائها ، وحلاوة إلقائها ، ووسامتها وحسن سماتها ، معين على ذلك

---

(١) « مي أديبة الشرق والعروبة » لمحمد عبد الغني حسن ، القاهرة ١٩٦٣ ، ص ١٩٠ — ١٩١ .

وكانت تميّزها حين تقف للخطابة في حقل أو للمحاضرة في جمع، ثقة بنفسها، واعتداد بشخصيتها، فما عرفت أنها تهيّبت منبراً، أو خشيت موقفاً، أو غشيتها سحابة من جبن، أو جلّلتها غمامة من خوف، بل كانت دائماً الواثقة، الشجاعة. »[1]

كان روّاد ندوتها نخبة من أدباء مصر وأدباء لبنان المتمصرين وبينهم عدد من الأدباء الاوروبيين المقيمين في مصر. يقول فيهم طه حسين إنهم كانوا « رجالاً ونساء يشتركون في تنظيم الاجتماعات الأدبية اشتراكاً حرّاً، سمحاً، فيه كثير جداً من الرقي والامتياز ... واتصلت حياة مي في هذا الصالون أعواماً غير قليلة وظهرت آثارها في كثير من إنتاج هؤلاء الناس »[2].
وإذا نحن راجعنا آثار روّاد الندوة، وجدنا قسماً كبيراً منهم يشيرون في بعض إنتاجهم من شعر أو مذكرات أو رسائل ومحاضرات الى ندوة مي وتأثيرها في نفوسهم.

من هؤلاء الرواد كان ولي الدين يكن الشاعر الملتهب العاطفة، الذي كان شديد الإعجاب بأدب مي وشخصيتها وقد دعاها الى نشر سوانحها في رسالة جاء فيها:

« فصولك الغضّة تعلو بالمدارك وتنير جوانب النفس فلا

---

(١) « مي أديبة الشرق والعروبة » م. س. ص ٢١٧.
(٢) المصدر نفسه ص ١٨٧.

تدعيهـــا كالأوراق التي تخضرّ في الربيع وتذوي في الشتاء .. اجمعيها جنيّة غضّة و كلّلي بها رؤوس هذه الأعوام . الناس في حاجة الى هذه الأنغام الإلهية » .

ولولي الدين في مي غزل كثير ترجّح انه كان له مثله في غير مي . منه هذه الأبيات التي أرسلها إليها إذ علم أنها مريضة :

أتسقم مي وأبقى صحيحاً ألا إنني الصاحب الخـائن
فيا ربّ هب لي مواجع مي بأضعاف مـــا يزن الوازن
وهب من حيـاتي حيـاة لهـا وإني لأمثالهـــا ضامن[1]

ومنهم اسماعيل صبري الشاعر المصري الرقيق الذي نظم في ندوة مي هذين البيتين المشهورين :

روحي على بعض دور الحي حائمة
كظامىء الطير تواقاً الى المـــاء
إن لم امتّع بميّ ناظريّ غـــداً
لا كان صبحك يـا يوم الثلاثـاء

ومنهم أحمد لطفي السيّد ، الأديب الذي كان قدوة للأدباء

---

(١) راجع مجلة « صوت المرأة » عدد خاص بمي ، كانون الاول ١٩٤٩ و « مي زيادة في حياتها وآثارها » لوداد سكاكيني ، دار المعـــارف بمصر ، ١٩٦٩ ، ص ١٢٦ .

بسموّ تفكيره ورفعة خُلقه . اهتم بتوجيه مي نحو الكتـابة بالعربية وكان أحد معلّميها كما كان معلم طه حسين .

ومنهم أنطون الجميّل ، الأديب « الجنتلمان » صاحب مجلة « الزهور » ، صديق مي الوفي ، الذي كان إعجابه بها يبلغ حد التقديس .

والدكتور شبلي الشميّل « صديق البيت » ، الذي كان ينظم الشعر ويبشّر بنظرية داروين . وقد خصّته مي في مذكرات الصحائف » بفصل ممتع فيه ذكاء ودعابة .

وخليل مطران « شاعر القطرين » الذي لازم ندوتها من غير انقطاع وكان يكنّ لها احتراماً عميقاً وإخلاصاً لا حدّ له. وعاش حتى رثاها بقصيدة مؤثرة .

وأحمد زكي باشا العـالم الكبير ، الذي كان يدير الكلام في الندوة حول الأبحاث والاكتشافات التاريخية ، تشاركه فيه مي المولعة بعلم التاريخ والآثار .

والأمير مصطفى الشهابي الذي يذكر في إحدى محاضراته ندوة مي وما تركت في نفسه من أثر فيقول : « كأني كنت في هيكل الأدب الأسمى وقدس النبوغ والعبقرية . وإذا بأحاديثها تنم على أدقّ مـا تلمسه مشاعر الإنسان . وقد خيّل إلي أنني في حضرة إحـدى سيدات الملأ الأعلى اللواتي كنت اقرأ عنهن في كتب كبار الأدباء الفرنسيين . وما كدنا نودعها حتى ابتدرني

الصديق العلاّمة أمين المعـــلوف قائلا : « إنها مخيفة » فقلت : « صدقت . وماذا أخافك منها ؟ » قال : « حدة ذكائها ووفرة معلوماتها الأدبية » . قلت : « أما أنا ففرط إحساسها لدقـائق الحديث حتى كدت أرى نفسي غير قادر على مجاراتها فيه »[1].

ومن رواد ندوتها عباس محمود العقاد الذي كان من أصدقائها المقرَّبين ، تبادله الرسائل الودّية والأدبية وتجري بينه وبينهـا المساجلات والمناقشات . وله في رثائهـــا قصيدة تعد من أرق شعره وأصدقه .

وطه حسين الذي تعرّف الى مي يوم حضر الحفلة التي اقيمت لتكريم خليل مطران وألقت فيها مي خُطبة كانت الوحيدة التي أعجبته بين الخطب . واتصلت بعد هذا زياراته لندوة مي وكان واحداً من قليلين رضيت مي أن تستقبلهم أيام عزلتها التي تلت عودتها من لبنان الى مصر . وكان طه حسين أحد الخطباء الذين تكلموا في حفلة تأبينها فنوّه بمكانة مي الأدبية وبتأثير منتداها الذي كان « ملتقى المثقفين ومجتمع المفكرين من أهـل مصر وسوريا ومن أهل الشرق والغرب »[2]

---

(١) « باقات من حدائق مي » لفـــاروق سعد ، نشر زهير بعلبكي ، بيروت ١٩٧٣ ، نقلاً عن كتاب وداد سكاكيني ، « مي زيادة في حياتهـــا وآثارها » . م. س. ص ٨٥ .

(٢) « مي أديبـــة الشرق والعروبة » لمحمد عبد الغني حسن ، م. س. ص ١٧٣ — ١٨٣ .

يذكر العقاد في مقاله «رجال حول مي»[١] ثلاثين من روّاد الندوة، بينهم، عدا الذين سبق ذكرهم هنا، سليمان البستاني الوزير الشاعر ومعرّب الألياذة ، احمـــد شوقي امير الشعراء ، داود بركات مؤسس جريـدة « الاهرام » ، نجيب هواويني خطّـاط الملك ، حافظ ابراهيم شاعر النيل ، ادريس راغب باشا الوجيه القاهري الذي أهدى والد مي مطبعـة « المحروسة » ، يعقوب صروف مؤسس « المقتطف » وكان لميّ الصديق الكبـير الذي يتعهدها بالرعاية الأبوية ورسائلها إليه آية في الطرافة والظرف ، سليم سركيس الصحافي اللبناني المشهور بلبـــاقته وكياسته ، مصطفى صادق الرافعي الشاعر ، صاحب « اوراق الورد » و « رسائل الأحزان » وقد اتخذ من مي عروس غزله العذري ، منصور فهمي الكاتب الباحث صاحب « محاضرات عن مي » ، الدكتور زكي مبارك الذي زامل ميّاً في الجامعة المصرية وسمّاها « مدموازيل صهباء » . والكلمة ترجمة اسمها الذي يعدّه فارسي الأصل ، مع أنه ورد في الشعر العربي القديم ودعيت به حبيبة ذي الرمّة الشاعر الأموي[٢] .

وهناك روّاد آخرون لا يتّسع المجـال لذكرهم . أمـا من

(١) « باقات من حدائق مي » م. س. ص ٨٢ ، نقلا عن الهلال ، عدد آذار (مارس) ١٩٦٢ .
(٢) راجع أبيات ذي الرمة في حبيبته مي كما أوردها طه حسين في تأبينه لمي زيادة ص ١٧٣ — ١٨٣ من « مي أديبة الشرق والعروبة » م. س.

الأديبات وقائدات المجتمع اللواتي قصدن ندوتها أو ترددن إليها، فنذكر هدى شعراوي زعيمة النهضة النسائية في مصر ، وقد وجدت في مي زميلة ومعاونة لها في نشاطاتها الاجتماعية والحفلات الخطابية التي كانت تنظّمها للدفاع عن المرأة والمطالبة بحقوقها والحضّ على أعمال البرّ والاحسان . ملك حفني ناصف التي راسلتها مي مراراً على صفحات الجرائد ووضعت في تحليل شخصيتها وأدبها كتاب « باحثة البادية » الذي سيأتي ذكره ، وايمي خير الأديبة اللبنانية الأصل التي نشرت مؤلفات شعرية وقصصية باللغة الفرنسية [1] .

لم يقتصر المعجبون بمي على أهل ندوتها . بل ان شهرتها جاوزت مصر الى سائر الأقطار العربية والى اقطار غير عربية . راسلها الكاتب والشاعر العراقي كاظم الدجيلي حين تصدّت مي لمناقشة نظريته حول وجود الشعر القصصي الحماسي (الملحمي) عند العرب ، في مقال نشرته مجلة المقتطف سنة ١٩١٩ . وردّ عليها الدجيلي بعد خمس سنوات بقصيدة مدح وإعجاب نشرها في « الهلال » وأتبعها ببحث يعود فيه الى إثبات نظريته ويعطي الشعر القصصي الحماسي اسماً آخر هو « العلواء » الذي يقصد به « الملحمة » .

---

(١) يراجع حديث هدى شعراوي وايمي خير عن مي في كتاب « مي أديبة الشرق والعروبة » م. س. ص ١٦٣ و ١٩٣ .

وكان طاغور شاعر الهند واحداً من الذين سحروا بمي فأهداها إحدى قصائده الانكليزية التي تحمل عنوان «خاطر الصباح»، وقد نشرت بأصلها الانكليزي مع ترجمتها العربية في كتاب مي: «بين الجزر والمد» (دار الهلال، مصر ١٩٢٤، ص ١٠٩).

إلا أن أغرب الأخبار التي رواها عن مي بعض الكتاب المعاصرين، وفيها الصحيح المقبول والضعيف الذي يحتمل الشك، ما رواه كامل الشناوي في جريدة «أخبار اليوم» سنة [illegible]، في سلسلة مقالات جمعت في كتاب عنوانه: «الذين أحبوا مي» نشرته دار المعارف بمصر سنة ١٩٧٢ (١) وجاء فيه: «أن أحد أمراء المغرب حاول خطف مي فحاصر بيتها بأعوانه واقتحموا البيت بقيادة الأمير لكنهم لم يجدوا مياً بل وجدوا قوة من رجال البوليس. وفيما يأتي تفصيل الخبر:

كان اسم الأمير محمد الجزائري. زار مصر سنة [illegible]، والتف حوله كثيرون من شباب المغرب، ممن يدرسون في الأزهر. وذاع عن الأمير أنه فارس شجاع وشاعر فحل وجواد ينفق عن سعة. فأحاط به جماعة من الأدباء البائسين والشعراء المغمورين «أخذوا ينهالون عليه بالثناء وينهال عليهم بالعطاء».

---

(١) «باقات من حدائق مي» م. س. ص ١٣١ — ١٣٥.

وحدث أن تعرّف الأمير الى الشاعر خليل مطران . ورأى هذا أن يقدّمه إلى مي . فصحبه إلى ندوتها في إحدى جلسات الثلاثاء . وفتن الأمير بحديث مي وصوتها العذب فصحّ عزمه على خطفها ، ورشا خادمها بعشرة جنيهات مقابل وعده إياه بتسهيل المهمّة . لكن الخادم ما لبث أن اعترف لمي وأصدقائها بالذنب الذي ارتكبه وأخذ يبكي نادماً مسترحماً . فسارع الأصدقاء الى إعلام الشرطة بالأمر ونصحوا مياً بمغادرة منزلها الى حين . ولما جاء الخاطف وطوّق رجاله المنزل تصدّى له رجال الشرطة وساقوه مع أعوانه الى المخفر . ثم افرج عنه بسعي من السلطات الفرنسية ولم يطل به الوقت حتى غادر مصر الى غير رجعة .

* * *

هنا أنتهي من الحديث عن شخصية مي كما تعكسها أقوال عارفيها وأهل ندوتها ، إبّان تألق هذه الشخصية وبلوغها ذروة الشهرة والإشعاع . وأنتقل الى موضوع الافول الذي أصاب مياً حين ألمّ بها العُصاب وأدى الى انقطاعها التدريجي عن الانتاج . فأثبت ما رواه أصدقاؤها ومعارفها وسواهم حول الموضوع . وأهتدي بآراء أهل البحث والتحليل السيكولوجي ، محاولة الوصول في النهاية الى تكوين رأي أو استنتاج .



إن فريقاً من الذين درسوا مياً وانتاجها حاولوا الاستعانة ببعض نظريات التحليل النفسي ليثبتوا أنها كانت مصابة بعقد نفسية هي في رأي فرويد وأتباعه حافز هام من حوافز الانتاج الفني . كما حاولوا أن يجدوا في العقد التي افترضوا وجودها والتي تتصل بموضوع الحرمان الجنسي والامومي أساساً للظواهر العصابية التي أصابتها في سن الكهولة وأدّت الى وفاتها المبكرة [1] . لذلك رأيت أن أتناول هذا الموضوع بالذات تحت العنوانين الآتيين :

أ – هل كانت مي معقّدة ؟

ب – ظاهرة العصاب عند ميّ .

خلال النصف الأول من هذا القرن سطع نجم سجمند فرويد، العالم الألماني الذي أعلن نظرية اللاوعي ، وخلاصتها أن عوامل لاواعية قائمة في منطقة خاصة من العقل تتحكّم في سلوك الانسان وتكوّن عنده عقداً نفسية عرّفها بقوله إنها مجموعة

---

(١) راجع «مي في حياتها المضطربة» لجميل جبر ، دار بيروت ١٩٥٣، ومقالتين عن مي لمارون عبود في « جدد وقدماء » ، دار الثقافة بيروت ، ١٩٥٤، ص ١٢٢–١٣٧ ، تحت عنوان « شيء عن مي » و « ما بين مي وجبران » . ومقالة عن مي لفؤاد سليمان في « صوت المرأة » عدد خاص بمي زيادة ، ٩ تشرين الأول ١٩٤٩ ، ص ١٠–١١ تحت عنوان «المأساة»

عناصر ذهنية ذات قوة انفعالية ، أو رغبة مكبوتة تتكشف في حالات تداعي الأفكار وفلتات اللسان والاسترسال في الحلم او في الهذيان . وبعبارة ابسط ، العقدة النفسية حالة انفعالية تسيطر على الفرد ، فقد تكون تعلقاً طاغياً بشخص او بشيء او بعقيدة . او تكون على النقيض ، كرهاً عنيفاً لشخص او لمذهب ما .

أهمية فرويد أنه كشف دور الكبت ، لا سيما الكبت الجنسي ، في تكوين العقدة التي سبق وصفها . فالإنسان في رأيه يعيش حياة داخلية تمثّل نفسيته وميوله الحقيقية ، وحياة خارجية يتلبّس فيها شخصية اخرى تراعي المواضعات والتقاليد الاجتماعية . وتصبح شخصيته الحقيقية مكبوتة ، غارقة تحت طبقة كثيفة من الرياء والتصنّع الاجتماعي . لكن المكبوت من مشاعره يجد لذاته مصرفاً في ظروف غير عادية ، وإذا كان هذا الانسان ذا موهبة فنّية ، فإن عقده تشقّ لنفسها طريقاً الى الخارج بالفن والكتابة ونحوهما من وسائل التعبير [١] .

العقد النفسية في نظر فرويد وأتباعه عقد وراثية عامة في

---

(١) واجع حول هذا الموضوع كتاب «تمهيد في النقد الحديث» للمؤلفة ، (دار المكشوف ، بيروت ، ١٩٧١) « النقد السيكولوجي » ص ٢٦ - ٤٠ و ص ٧٦ - ٨٢ .

النوع البشري . إنها رواسب عهود فطرية عريقة في القـــدم . منها عقدة اوديب التي ترمز الى منافسة الابن لأبيه في حب الام. عقدة ايلكترا التي تشير الى تعلق البنت بأبيها او أخيها . العقدة النرجسية أي الانطواء على الذات الناشىء من عقــدة اوديب . عقدة قايين وتعني كره الأخ لأخيه ومنافسته في حب الام . هذه الرواسب الجنسية الخفية تتلاشى عند أكثر الناس في سن انفتاح الفتى والفتاة على حب الجنس الآخر . لكنها عند بعض الأشخاص تسعفها ظروف خاصة على الاستمرار . مثلاً ، في حـــال وفاة الأب وخضوع الولد لرعاية ام ترهقه بحنوهـــا وسيطرتها ، قد تحتفظ عقدة اوديب بسلطتها وتجعل من صاحبها شخصاً منعزلاً عن المجتمع ، خجولاً في حضور الفتيــات ، عاجزاً عن استمالتهن أو الوقوع في حبهن ، لأن عقــدة اوديب تكبّله بأمه وتقف حاجزاً دون انطلاق مشاعره .

إن نظرية فرويد في موضوع العقد الوراثية كانت وما تزال مثار شك وموضوع مناقشة لدى تلاميذه وسواهم من علمـــاء النفس . لكن واحداً من هؤلاء – أدلر – جاء بنظرية اخرى زعم أنها أقرب الى الواقع . هي نظرية العقد المكتسبة ، غـير الموروثة ، ومنها ، على سبيل المثـــال ، « عقدة النقص » او « الشعور بالدونية » ، التي تصيب الفاشلين والمعدمـين وذوي العاهات وأهل الطبقة الدنيا في المجتمع فتؤثر في سلوكهم بإحدى

طريقتين متناقضتين . فإما أن تجعلهم جبناء ، ضعاف الثقة بذواتهم ، عاجزين عن المغامرة والطموح . أو تثير فيهم العزم والرغبة في التحدي ومقارعة الأهوال حتى التهوّر . والتاريخ يقدّم لنا أمثلة من هؤلاء الموتورين والمستضعفين الذين جعلهم الظلم والإذلال أبطالاً مغامرين . منهم عنترة العبسي الذي دفعه استبداد قومه وتحقيرهم له الى الكفاح المستميت والإتيان بالعظائم . كما يقدّم التاريخ أمثلة اخرى من أفراد وجماعات أورثها الذل والضعف خمولاً وتقهقراً وأدى بها الى التلاشي والانقراض .

الى جانب « عقدة النقص » التي يكثر الحديث عنها ، يذكرون عقدة العظمة والانتفاخ التي ربما اشتقت من عقدة النقص . وعقداً اخرى تتخذ شكل العنف والشذوذ في بعض الظواهر الانفعالية ، كالحسد الآكل ، الهمّ المذيب ، القلق الطاغي ، الطموح المتهور ، البخل القاتل ، التعصب الأعمى والهوس الجنسي وغير ذلك .

هناك فئة من المفكّرين ، منهم الفلاسفة الوجوديون خصوم الجبريّة ، يرفضون نظرية اللاوعي لأنهم ينكرون استعباد الإنسان لعوامل قسرية تسيّره رغم إرادته . فالإنسان في رأيهم صانع ذاته وسيد مصيره وليس عبداً للغرائز التي سمّاها القدماء قدَراً .

وبين تضارب النظريات وتصارعها نقف لنسأل : ما علاقة العقد النفسية بالفن والأدب ؟

إن أرباب التحليل النفسي يثبتون دور العقد النفسية في حفز الموهبة الفنية وتوجيهها . فالفن – ومنه الأدب – تعبير عن أحلام وانفعالات يسندها الفنان الى أبطال قصته او مسرحيته او الى بطل قصيدته الغنائية . او يعبّر عنها تعبيراً رمزياً ، مبرقعاً في لوحاته اذا كان مصوراً ، في تماثيله اذا كان نحاتاً ، في موسيقاه اذا كان موسيقياً . ويضيفون ان الأحلام والانفعالات التي تجد لذاتها منفذاً في نتاج الفنان ليست إلا عقداً نفسية تصر على التحرر والخروج بطريقة التعبير الفني الذي يحدث في نفس الفنان انفراجاً وراحة لأنه مصرف بريء لرغبات تلح عليه وتقلقه . ومن هنا يقولون إن كل فنان معقّد ، وليس كل معقّد فناناً . ولكن أصحيح أن كل فنان معقّد ؟

لا بدّ من لفت نظر القارىء – في هذه المناسبة – الى مبدأ تجب مراعاته في النقد كما في سواه من فنون البحث . مبدأ التمييز بين الحقائق والنظريات . فالموضوع الذي عرضته لا يعدو أن يكون نظرية تحتمل الرد والمناقشة وقد تعرّضت في الآونة الأخيرة لهجمات شنّها عليها عدد من الباحثين

المعاصرين [١] .

كان القدمـاء يلاحظون في سلوك بعض الأفراد من شعراء وغيرهم مقداراً من الغرابة والشذوذ فينسبون ذلك الى الوسواس والتطيّر ويذكرون أثر البيئة في تكوين أخـلاق الأفراد والجماعات فقالوا في ابن سهل ، أحد شعراء الأندلس : اجتمع فيه ذلاّن ، ذل العشق وذل اليهودية فرقّ غزله ولان .

واليوم إذا حاولنا درس الأشخاص الذين نعاشرهم ، فقلما نجد بينهم من لا يشكو شذوذاً أو غرابة خلقية يصح أن نسميها عقدة نفسية في ضوء التحليل النفسي . فليس مستغرباً أن نكتشف مثل هذه العقد عند الأدباء والفنـانين الذين يوصفون بفرط الحساسية وسرعة الاستجابة للمؤثرات. لكن الخلاف عند أهل البحث يقع على التسمية وعلى العوامـل الكامنة وراء ما يسمّونه عقـدة نفسية : أوراثية أم مكتسبة ؟ أصادرة عن وعي أم لا وعي ؟

---

(١) هاجم النقد التحليلي في أوائل هذا القرن الكاتب د. هـ. لورنس في كتابين : «Psychoanalysis and the Unconcsious» (1921)
«The Fantasia of the Unconscious» (1922)

وفي عصرنا الحاضر كثرت الاعتراضات على نظريـات فرويد ومناقشاتها وتعديلاتها. راجع ص ١٠ من مقدمة «Psychoanalysis and Literature» Ed. & with an introduction by Hendrik M. Ruitenbeek, (N. Y. 1964)

إن الذين درسوا نتاج جبران الفني والكتابي لاحظوا تقديسه للمرأة وتعبّده للأم والأمومة بنوع خاص . وفي وسعنا تعليل هذا الموقف إذا ذكرنا دين جبران للمرأة عموماً ، وبنوع خاص لأمه التي برهنت في حياتها عن بطولة كان يفتقر إليها أبوه . فقد كابدت مشقّة السفر الى اميركا سعياً وراء الرزق ، مصطحبة اولادها الأربعة الذين كانوا جميعاً قاصرين إلا واحداً . فهل نعزو تعلّق جبران بأمه الى عقدة اوديب الوراثية ؟ أم نقول أنه ظاهرة معقولة ونتيجة طبيعية لشجاعتها وذكائها وتضحيتها في سبيل أولادها ؟

وإذا حاولنا درس مي على ضوء التحليل النفسي ، هل نجد في تصرُّفها وفي أدبها دلائل تعقدات نفسية ؟ هل كان طموح مي وبلوغها ذروة النجاح الأدبي مظهراً لشعورها بالنقص ورغبتها في تحدّي الظروف القاسية التي نشأت فيها ؟

كانت مي تنتمي الى اسرة متوسطة الحال ، لا تشكو البؤس ولا الخمول . والدها يمارس التعليم لكن لديه مورداً كافياً أمكنه من إرسال ابنته الى مدرسة داخلية كانت في ذلك الحين من أفضل مدارس البنات في لبنان . وكانت مي فتاة جذابة ، ذكية ، أكسبها نجاحها في الدروس اعتزازاً وثقة بنفسها . وكانت وحيدة أبويها ، لا أخ ولا أخت ينافسانها في الحب الذي أغدقاه عليها .

ليس في أخبار مي وأحاديث طفولتها ما يدل على شذوذ أو غرابة في تصرفها . واذا كان طموحها الكبير الذي جعل منها شاعرة ، خطيبة ، ناقدة وباحثة ، أمراً غير عادي بالنسبة لمعظم فتيات عصرها ، فلأنها اكتشفت في نفسها مواهب لم تكن لسائر الفتيات ، فعمدت الى استغلالها . مع هذا ، لا ننكر أن تألـمها لوضعها الأنثوي ، ولموقف المجتمع ، لا سيا المجتمع الشرقي ، الذي يحقـّر المرأة ويقسو عليها ، أحد العوامل التي أثارت رغبتها في تحدّي الرجال ومنافستهم في الكتابة .

إذا راجعنا كتابات مي من شعر ونثر ، لا نلاحظ فيها موضوعاً يستأثر باهتمامها دون سواه، ولا نصطدم بعاطفة طاغية، جارفة ، تسيطر عليها . معظم موضوعاتها هي موضوعات الرومنطيقيين ، وشغفها بالطبيعة شغفهم . في بعض مذكراتها تصرّح أن حبّها مثلّث الأقانيم : البحر والسماء والعيون ، وتتمنّى أن تكون بحاراً تناجي عظمة البحر وتكافح الأمواج والزوابع (ص ١١٥ من « مي في مذكراتها » لجميل جبر) . على مثال ادباء القرن التاسع عشر في الغرب ، يلحّ عليها موضوع البحث عن السعادة والتساؤل عن معنى الوجود ، فتكرّس لهذا الموضوع قسماً من خواطرها في « ظلمات وأشعة »، حين وقفت أمام كوّة الحياة خائفة متردّدة ثم لبّت نداء الصديق فسارت مع السائرين وخاضت غمار الكفاح المرهق الذي يسوق البشر بعصاه . لكنها لم تستسلم للشخصية العامة بل ظلت رغم

وجودها بين الناس منفردة كأنها ليست منهم . أما السعادة التي نشدتها فظلت ضرباً من الوهم .

إذا كانت مي في موضوعاتها واسلوبها متأثرة بالرومنطيقيين فهي بريئة من تطرفهم ومبالغاتهم العاطفية والخيالية . ولا نرى في كتاباتهـــا ما نراه عند بعض تلميذات الرومنطيقيين من تأليه للحب وشوق وتعبّد للرجـل وشكوى من حب فاشل وندب لحبيب راحل [١] . فموقفها من الحب أشبه بموقف الكلاسيكيين الذين دعوا الى ضبط العـاطفة والسيطرة عليهـا . أو بموقف الصوفيين والانسانيين الذين آمنوا بالحب المثالي الذي يجعل العالم هيكلاً تخشع فيه النفوس فتجثو للعبادة والصلاة والاتحـاد الروحي مع جميع قوى الكون [٢] .

إن كتاباتها إجمالاً تتجه اتجاهاً اجتماعياً ، مثالياً ، يدل على نجاحها في تحويل طاقتها الجنسية ، وغير الجنسية ، الى مجـار إنسانية رفيعة . وفي بعض مذكراتها تشير بصراحة ووضوح الى هدفها من الكتابة فتقول : « أتمنى أن يأتي بعد موتي من ينصفني ويستخرج من كتاباتي الصغيرة المتواضعة ما فيهـا من روح الاخلاص والصدق والتحمّس لكل شيء صالح وجميل » [٣] .

---

(١) راجع مثلا اشعـــار الكونتيس دو نواي ، ومارسلين ديبورد فالمور وغيرهما .

(٢) ص ٦٢ من « مي في مذكراتها » ، نشر جميل جبر .

(٣) «باقات من حدائق مي» لفاروق سعد ، (داخل الغلاف الخارجي) .

إذا حاولنا استكشاف شخصيتها من خلال قصصها ، لاحت لنا في صورة « شجيَّة » (قصة الحب في المدرسة) طفلة لعوباً ، تحب الحرية ، ترغب في العشرة والصداقة . شديدة التعلق بفتاة أكبر منها سناً تقوم لها مقام الأم ، غيورة تريد الاستئثار بحبها وتكره خطيب الفتاة الذي ينافسها فيه. ان صورتها في « شجيَّة » صورة طبيعية لطفلة في العاشرة ، كثيرة الحيوية ، خفيفة الروح ، مرهفة الشعور .

أما في « الشمعة تحترق » ، قصة الراهبة التي تستغفر الله لأنها في ساعة ضعف شعرت بانجذاب عاطفي الى الجندي الشاب الجريح الذي قامت على خدمته في المستشفى ، فإن ميّاً تعبّر عن إعجابها بنضال الراهبة في سبيل المثل الأعلى وتحس بتعاطف يشدّها إليها . لأن ميّاً كانت متعبدة تجد راحة وقوة في الصلاة والمناجاة [١] . ويظهر لنا من أخبارها انها كانت حريصة على القيام بواجباتها الدينية مع تأكيدها بأنها أخذت عن والديها روح التساهل الديني واحترام جميع الأديان . فتديّنها لم يكن تعصّباً ولا تهوّساً [٢] .

لقد استنتج طه حسين من حياة مي المثالية حكماً يدين به

---

(١) راجع رأيها في الصلاة ص ١٧٣ من (مي في مذكراتها) نشر جميل جبر .

(٢) ص ١٠٣ من (مي في مذكراتها) م. س.

موقفها المتزمّت الذي ساقها الى العزلة التامة في أواخر أيامها فقال من حديث أدلى به الى محمد عبد الغني حسن [1] : انها تظهر في حياتها الأدبية بمظهرين مختلفين أشد الاختلاف ، مظهر الأديبة البَرْزة التي لا تحتجب ولا تستخفي ولا تلتقي الرجال حين تقتضي الظروف لقاءهم وإنما تنظّم الاجتماعات الأدبية التي يشترك فيها الرجال والنساء اشتراكاً حرّاً ، سمحاً ، فيه كثير جداً من الرقي والإمتياز . أما المظهر الثاني فهو مظهر مي التي آثرت الوحدة وألحت على نفسها في العزلة وتدرّجت فيها تدرّجاً بطيئاً في أول الأمر لكنه سريع ملحّ في آخر الأمر » .

إن طه حسين يرى في سلوك مي تناقضاً . فبينما هي تُعرض عن مقابلة الرجال في الظروف العادية التي يمكن أن تؤدّي الى عقد الصداقة والتفاهم الروحي بين الجنسين ، إذا هي تستقبلهم في ظروف غير عادية . في الندوة او الصالون الذي يقيم بينها وبينهم حجاباً من الكلفة والتصنع . وكأني به يقول ان مي لم تسلك في علاقاتها الاجتماعية الطريق الذي يمهّد لها العثور على رفيق العمر او على القلب الذي يفهم قلبها . وحين ظنت أنها وجدت في جبران ضالّتها المنشودة أدركت أنها في سعيها تحاول

---

(١) ص ١٧٨ – ١٨١ من « مي اديبة الشرق والعروبة » لمحمد عبدالغني حسن ، م. س.

المستحيل لأن المسافات البعيدة حالت بينها وبينه ، الى جانب مسافات اخرى مصدرها موقف جبران السلبي من الزواج .

لذلك يقول العقاد الذي كان هو ايضاً من روّاد ندوتها ، يشارك طه حسين إعجابه بمي وإخلاصه لها : « وقد كنت كلما ازددت معرفة بمي وحياتها وندوتها وفي بيتها ، أشعر بحنان هؤلاء الأفاضل الأبوي نحوها فإنهم ولا ريب كانوا يقصدون التسرية عنها ويدركون من بواكير صباها أن فرط التزمّت في طويتها يجاوز حدّه المأمول ، وأنها توشك أن تعاني كثيراً من عادة العزلة النفسية التي جنت عليها في أُخريات أيامها . وأنها تغالب شجناً كميناً لانطوائها الشديد على ذاتها، نميل الى أنه مزيج من الصدمة العاطفية وشعور التبتل العميق في سليقتها الدينية »[1] .

إن طه حسين والعقّاد كليهما يصرّحان ان في سلوك مي إسرافاً في التحفظ والعزلة . يعزوه الأول الى التناقض والشذوذ ويعزوه الثاني الى صدمة عاطفية وشعور التبتل العميق في سليقتها او غريزتها الدينية . وليس في أخبار مي ما يطلعنا على حقيقة

(١) « رجال حول مي » ، مقال للعقاد في الهلال عدد آذار ١٩٦٢ ، نشر في « باقات من حدائق مي » لفاروق سعد ، نشر زهير بعلبكي ، بيروت ١٩٧٣ .

وجود الصدمة العاطفية او عدم وجودهـــا . وتبقى أسباب تحفُّظها وعزلتها على شيء من الغموض .

إلى هذا يمكننا أن نضيف أن مياً كانت منذ حداثتها تشعر بالغربة . غربة الولد الوحيد الذي لا يؤنسه أخ أو أخت . غربة اللبنانية التي تقيم في ارض غريبة ، بعيدة عن جبالها وأحراجها، وتحنّ الى مـــا يسمونه « وطن » [1] . غربة الأنثى في مجتمع يسيطر عليه الذكور ولا يحترم المرأة إلا إذا كان لها من مالها أو منزلة قومها أو مكانة زوجها أو نبوغها وتفوقها ما يلفت إليهـــا النظر. لذلك نراها تألف الوحدة وسط ضجيج الناس وهياجهم، يساورها الحزن في يوم النصر وحولها تتعالى الهتافات والزغاريد. تخشى التطرف في مواقفها الاصلاحية فلا تريد للمرأة التمرُّد ولا الإسراف في التحرر . تعطف على الضعفاء والتعساء ، بشراً كانوا أم حيوانات أم أشجاراً [2] . ترغب في الصداقة التي تمنحها سروراً وانفراجاً فتهدي مذكراتها إلى صديقتها سيدونيا ريبرجو مـــع كلمة تصدير تقول فيها : « أتقدم إليك بهذه الصفحات المسلوخة من فؤادي . عندما فقدت بولين التي كنت أهديتها زهرة الصداقة حلت محلها صديقة أشد وفـــاء منها وهذه الصديقة هي أنت يا

---

(١) راجع مقالها : « أين وطني » في « ظلمات وأشعة » .

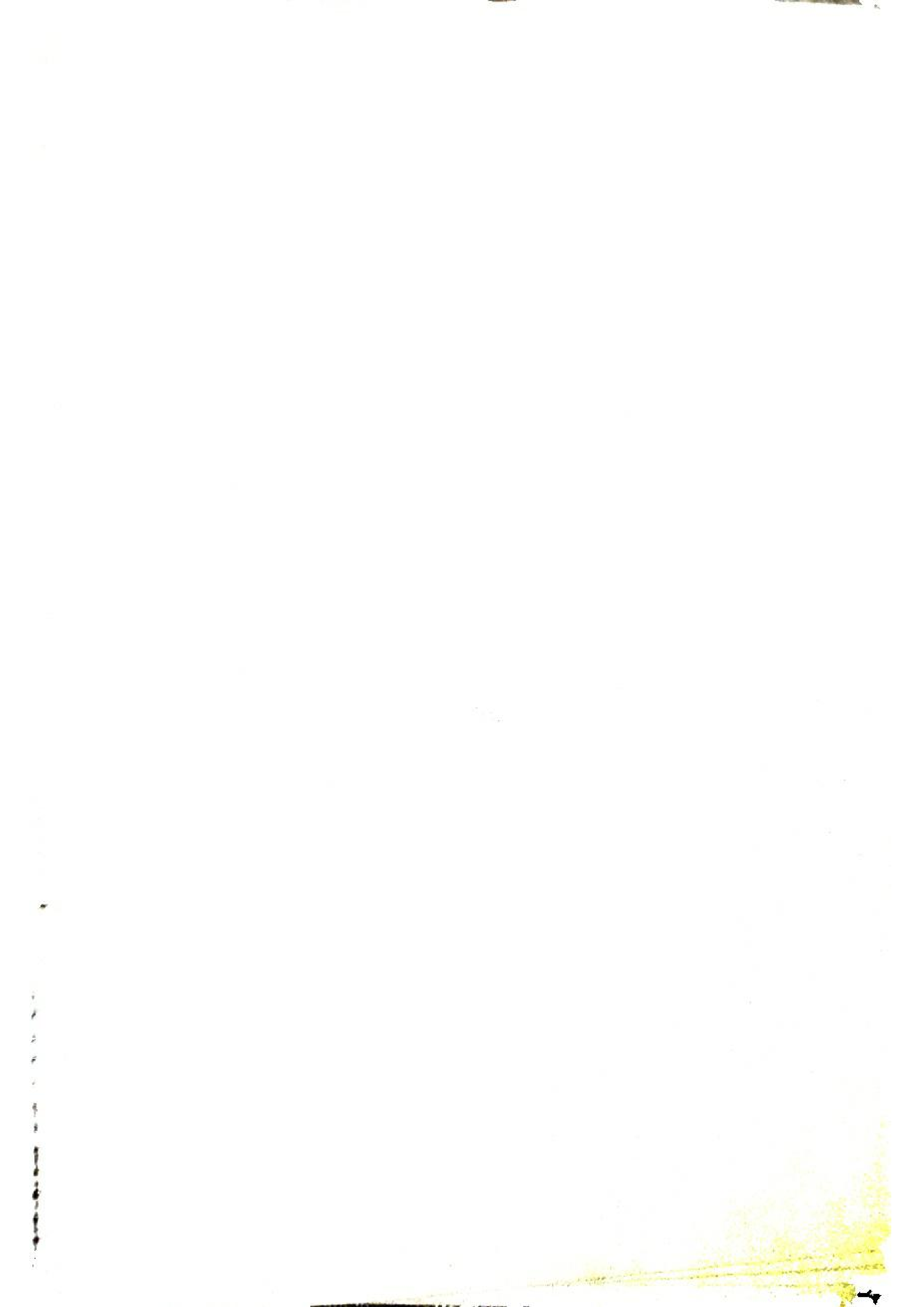
(٢) راجع « دمعة على المفرّد الصامت » ، « بكاء الطفل » ، « أيهـــا الغريب » ، في كتابها « ظلمات وأشعة » .

عزيزتي سيدوني ، فرسائلك الملأى بالعذوبة والمودة والانفتاح بعثت غير مرة اشعة الشمس إلى روحي التي جلدتها الوحدة »[1] .

ولكن يبدو أن الظروف القاسية التي واجهتها مي منذ ١٩٣٠ زادتها شعوراً بالغربة وربما كان هذا الشعور المتزايد أول مظاهر العصاب الذي سيكون موضوع البحث التالي .



(١) ص ١٨٣ من (مي في مذكراتها) م. س.



ظاهرة العصاب عند مي

ان المطلع على سيرة مي في طفولتها وشبابها يحاول ان يبصر من خلال درسه لها ظروفاً وعوامل ممهدة لذلك الصراع النفسي الذي هاجمها منذ ١٩٣٥ ولازمها فترات متقطعة حتى وفاتها سنة ١٩٤١ .

ذلك لان الباحثين الذين تناولوا بالدرس موضوع العصاب(١) او الاضطراب النفسي ، يؤكدون ان اعراضه تظهر في سن الطفولة بتأثير عوامل بيئية . فمن العصابيين من يجاوزون تلك الاعراض ويتحررون منها . ومنهم من تلازمهم بشكل قليل او

---

(١) بعض المصادر حول موضوع العصاب :

Horney, Karen, «New Ways in Psychoanalysis», New York, 1959.

Costello, Charles Y. (Editor), «Symptoms of Psychopathology», John Wiley & Sons, U.S. 1970.

كلمتا Neurosis, Psychosis في

Encyclopedia & Dictionary of Medicine & Nursing, Miller & Keane. Collier's Encyclopedia No. 17 Encyclopedia Britannica 1968

كثير ، فتخلق فيهم ما يسمونه « الخلق العصابي » (بضم الخاء) ، أو المزاج العصابي ، الذي تميز به عدد من المشاهير المعروفين بالشذوذ الفكري والانحراف الخلقي . منهم روسو ، جيرار دو نرفال ، بايرون ، ادغار آلن بو ، بودلير ، فرلين ، رامبو ، دوستويفسكي وغيرهم .

أصحاب هذا الخلق أفراد سريعو التأثير والانهيار . يعجزون عــن مجابهة الازمات والخسائر والظروف الصعبة . تلازمهم تصرفات طفولية وميول نرجسية وحساسية زائدة لآراء الناس وانتقاداتهم .

يقول اولئك الباحثون ان الوراثة قـد تلعب دورا في خلق العصاب لكنهــم يرفضون بحث الموضوع من هذه الناحية لأن المعلومات المتوفرة حول موضوع الوراثة هي من الضآلة بحيث لا تصلح أساسا يصح الاعتماد عليه . [١] لكنهــم يلحّون على اثبات دور البيئة في تكوين العصاب ويذكرون من عوامله ، في الطفولة على الاخص ، مرور الولد بتجارب فشل وسلسلة خيبات وصدمــات تثير في نفسه مشاعر بغض ونفور من شخص يعزو اليه اسباب فشله . وقد يسوقه هذا النفور المستحكم الى كره ذاته وتحقيرها والرغبة في الانتحار . ومن تلك العوامل ،وجود

---

(١) Karen Horney, «New Ways in Psychoanalysis» p. 276

الولد في بيئة غير صالحة لنموّه السويّ او الطبيعي ، بيئة ضغط ومعاكسة تجعله قلقا ، خائفا ، عاجزا عن مجابهة المشاكل التي تعرض له . فيلجأ الى وسائل دفاعية ذهنية ،كالتبرير اللامنطقي ، وممارسة الكبت والهروب ، احالة اخطائه على سواه ، تقلّص شخصيته الى حد الاندماج بشخصية اخرى والاعتماد المطلق عليها لقضاء حاجاته وتسيير اموره . فاذا لم يتحرر من هذه الاعراض في سن باكرة ، ينشأ اتكاليا ، خائر العزم ، ويصبح عصابيا مزمنا ، تتناوبه حالات ترمز الى الصراع اللاواعي .منها القلق الذي لا يجد تبريرا كافيا ، الهبوط النفسي لدى حلول مصيبة او خسارة ، اجترار الماضي ، الانغماس في مشاعر ندم على أخطاء ماضية ، تحقير للامكانات الذاتية يسوق صاحبه الى الانكماش والرغبة في الانتحار .

ان ما وصل الينا من أخبار ميّ وما نقله مؤرخو سيرتها ، لا يشير الى صدمة او خيبة امل عانتها في صغرها . ولا نستطيع القول انها قضت طفولتها في بيئة ضغط وحرمان . لا ريب انها كانت في بيت والديها وحيدة مدلّلة ، لكن التدليل لم يفسدها ولم يجعلها اتكالية ، ضعيفة الشخصية . في مدرسة عينطوره ، حيث جو الدير قد يوحي بالكآبة ، كانت تجد في كتابة المذكرات تنفيسا وفي عشرة الكتب والرفيقات ، كما في عشرة الطبيعة ، أنسا ولهواً .

في مصر استكملت مي نموّ شخصيتها وانطلاق مواهبها .

وجدت في التسامي طريق السعادة وفي الانتاج الفكري مصرفا للطاقة الجنسية والعاطفة الامومية . قال فيها الواصفون انها فتاة عذبة الروح ، رضيّة الصفات ، ذات انوثة جذّابة . تكاد الابتسامة لا تفارق محيّاها [1] . أصابت من النجاح الادبي والاجتماعي ما عجز عنه رهط كبير من ادباء عصرها فلم تعرف التجارب الفاشلة التي تسوق اصحابها احيانا الى الاضطراب والعزلة النفسية . لقيت من اعجاب عارفيها ومودة اصدقائها ورعايتهم ما يمنحها تفاؤلاً وثقة بالنفس وايماناً راسخاً بمواهبها .

كانت تتلقى من جيش المعجبين بها رسائل الاطراء وأحيانا اشعار الحب والغزل . فتجيب عنها شاكرة وتقف عند حد الشكر . ويلوح لنا ان تلك الرسائل كانت في مجملها تتبع نهجا تقليديا خطّه شعراء العرب القدامى ، لا سيما شعراء العصر العباسي ، الذين اصطنعوا الغزل اصطناعا بنساء حقيقيات أو وهميات ،واتخذوه مصرفاً لانفعالات عابرة أو أداة لهو مريح. من هذا النوع غزل ولي الدين يكن بمي وغزل اسماعيل صبري وسواهما .

وقد نشر لها محمد عبد الغني حسن في كتابه : «مي اديبة الشرق

(١) « مي أديبة الشرق والعروبة » م. س. ص ١٣ – ١٤ .

والعروبة »[1] استنادا الى « حياة الرافعي » لمحمد سعيد العريان، رسالة موجّهة الى هذا الشاعر الذي كان احد المتغزلين بها ، جاء فيها ما يدل على تجاوب حبّي بينها وبينه :

« شعَرْنا اول اللقــاء بما لا يكون مثله الا في التلاقي بعد فراق طويل . كأن في كلينا قلبا من بعيد . ولم تكد العين تكتحل بالعين ، حتى اخذت كلتاهما أسلحتها واثبت اللقاء بشذوذه انه لقاء الحب » .

يضيف العريان حول هذا الموضوع : « كان يحبها حبا عنيفا جارفا لا يقف في سبيله شيء. ولكنه حب ليس من حب الناس. حب فوق الشهوات وفوق الغايات الدنيا لأنه ليس له مدى ولا غاية » .[2]

ان قول العريان هذا يؤيد رأينا في نوعية واهداف الرسائل الغزلية التي كانت ترد الى مي من مختلف المصادر . امـا رسالة مي الى الرافعي فان من ينعم فيها النظر يتّضح له انها مدسوسة لأنها بعيدة كل البعد عن الاسلوب الذي نعرفه لمي ، وانما يطغى عليها تصنّع الرافعي وتحذلقه في « اوراق الورد » ، وليس في ما يدل على صلة حميمة بينها وبين صاحب « رسائل الاحزان ».

---

(١) « مي أديبة الشرق والعروبة » م. س. ص ٢٥٨ - ٢٥٩ .
(٢) المصدر نفسه ص ٢٥٨ - ٢٥٩ .

وقد اجادت وداد سكاكيني في كتابها : « مي زيادة في حياتها وآثارها » مناقشة هذا الموضوع وبلغت غاية التوفيق في الرد على سعيد العريان [1] . وظلت مي في حياتها الخاصة مثالا للمحافظة والتدين العميق . لكنها اختارت ان تراسل جبران المقيم في اميركا وقد جذب انتباهها بكتاباته الثائرة واسلوبه الجريء . وتدل احدى رسائلها على انها أحبته عن بعد . لكنها لم تلق منه تجاوباً يذكر ، وانطوت صفحة تلك العلاقة الحبية الغريبة ، منذ ١٩٢٥ .

اما علاقتها بأقاربها فيشوبها بعض الغموض فهي بعيدة عنهم ولم تسمح لها الظروف بأن تقيم معهم علاقات ودية ، وعندها من مشاغلها وعلاقاتها الفكرية ما يملأ وقتها ويمنحها اكتفاء ورضى . كانت تملك ثروة مالية متواضعة تؤلف ضمانة لمستقبلها . وثروة فكرية عظيمة القدر تستمد منها نشاطاً ووحياً دائمين . وقد تربعت على عرش الشهرة وظلت محط أنظار الناس حتى في السنوات التي تضاءل فيها إنتاجها وأخذت تحتجب عن الناس .

إن سيرة مي حتى السن التي أصيبت فيها بأعراض الهبوط النفسي (١٩٣٥) لا تنذر بتلك النهاية المحزنة التي انتهت إليها . وإذا نحن حاولنا أن نستوحي من كتاباتها ما يلقي ضوءاً على

---

(١) «مي زيادة في حياتها وآثارها» م. س. ص ١٢٦ — ١٢٧ و ٢٠٤ .

شخصيتها ، وجدنا في حرصها على جمال التعبير وطرافته دليلاً على رهافة ذوقها وقوة إحساسها الفنّي . في مواقف الجد ، لا تخشى اللجوء الى النكتة طلباً للتنويع والترفيه . ولا تجد حرجاً في التعبير عن انفعالاتها بهتافات لبقة ، مثل قولها : « هلّلويا » إشارة إلى الطرب والبهجة . « يا حفيظ » ، « يا إلهي ! » في موقف دهشة وسخر .

شديدة الرغبة في المعرفة ، كثيرة التساؤل عن أسرار الغيب وغوامض الوجود ، مع علمها بأن إدراك تلك الأسرار يجاوز طاقة البشر . ذات شعور إنساني يخرجها من دائرة الذات إلى دائرة الوجود الأوسع، وفي ذلك تخالف أصحاب المزاج العصابي المتازين بالانطواء . في « ليلة عيد النصر »[١] حين « يموج على الآفاق لألاء المواسم والأعياد ، ومن أحشاء المدينة يصعد هزج النشوة والظفر » ، تسري إليها عدوى الطرب ، فتعتلي سطوح الحمى لتشرف على فرح الفارحين وتنال منه نصيبها . في تلك الدقيقة بالذات يستوقفها ويدمي قلبها منظر العجوز التي حدودب ظهرها ونثر شتاء العمر على هامتها ثلج الشيخوخة ، وهي ، باسم القانون ، تطرد من الغرفة الصغيرة القائمة في طرف السطح . تطرد من المنزل إلى تحت قبة السماء ، لأنها منذ خمسة شهور لم تؤدّ للمالك بدل الايجار .

---

(١) إحدى مقالاتها في « ظلمات وأشعة » . نشر مؤسسة نوفل ص ٥٦ .

وتردّد مي هنا : « عاملان اثنان يتجاذبان الجنان : عامل الحزن وعامل السرور . على أن قطرة حزن في عمقها توازي بحر سرور في اتّساعه » .

إن الكآبة التي نلمحها في بعض انتاجها والتي يعزوها فريق من النقّاد إلى تأثير الأدب الرومنطيقي أو إلى انفرادها في بيت أبويها ، ليست كآبة طاغية أو ملحّة[1]. في « ظلمات وأشعة »، وهو كتاب أفكارها الحميمة ، لا تظهر الكآبة إلا في « نشيد نهر الصفا » ، « يوم الموتى » و « أين وطني » . كتبت المقال الأول تحت تأثير الحرب العالمية الأولى، إذ كان يدوي في مخيّلتها هدير المدافع، تتمثّل صور الحرب المخيفة ، ويملأ أذنها ضجيجها التافه، وتضجر نفسها من معانيها السطحية ومراميها الخبيثة ، فتناجي النهر قائلة : جئتك تعبة الروح والجسد معاً .

الثاني أوحى به إليها يوم الموتى ، اليوم الذي يتذكر فيه المسيحيون موتاهم فيزورون القبور حاملين إليها الزهور والذكريات . فمن الطبيعي أن تراودها فيه التأملات الحزينة .

---

(١) يعتقد شيخ الأزهر مصطفى عبد الرازق ، وكان من رواد ندوة مي، خلافاً لما يظنه البعض ، « ان ميّاً لم تكن في اصل فطرتها كئيبة . وقد يكون مجهودها العقلي أعان الظروف السيئة التي صادفتها في سنيها الأخيرة ، على ما جدّ لها من كآبة وحزن » . « مي أديبة الشرق والعروبة » م. س. ص ١٦٠ .

لكن الموضوع يلهمها كذلك أفكاراً فلسفية ، تفاؤلية ، إذ ترى في الأرض والبحار والأفلاك مدافن دهرية ، وفي الوقت نفسه ، معامل توليد وتكوين . لأن الحياة تنشأ من الموت ، وعيد الموتى هو كذلك عيد الأحيـــاء ، « عيد الناموس الفرد الذي يعجن أشكالاً تبدعها الطبيعة العلماء ... ولا يفتأ يستخرج الجديد من القديم ويدغم القديم في الجديد ليتم للأحقـــاب تعاقبها بالبشر والأفلاك والزمان في مجاهل اللانهاية الخالدة » .

أما مقالها : « أين وطني ؟ » ، فهو تعبير عاطفي عن نفس حائرة ، ممزّقة بين الطوائف المتنافرة والمذاهب المتعـادية والأوطان المفتقرة إلى مقوّمـات الوطنية . مي لا تتكلم هنـا باسمها فقط بل تشير الى الفوضى السياسية والمذهبية والفكرية التي كان ولا يزال يتخبط فيها الشرق العربي بأسره . تحنّ إلى وطن تستطيع الإيمـان به والاطمئنان إليه ، سواء أكان هـذا الوطن مصر أم لبنان أم أي قطر عربي آخر . لقـد استوحت هذا المقال من مؤتمرات الصلح التي جعلت الدول القوية تتلاعب بمقدّرات الدول الصغيرة كما بحجارة الشطرنج، فتقدّم وتؤخّر، تطرح وتقسم ، تميت وتحيي ، هازئة بحاجات الشعوب وأمانيها، غير عابئة بسوى مصالحها الأنانية .

إن مياً في خطبها وكتاباتها، تبدو متّزنة الشخصية، معتدلة التفكير ، تغلّب العقل على العـاطفة وتقيس الامور بمقاييس

المنطق . تميل إلى الثورة والتجديد لكنها تكره التطرف والتمرُّد والفوضى [1] . ولعل انجذابها إلى جبران كان من نوع انجذاب النقيض إلى النقيض .

أسلوبها الجديد لا يسرف في الجدّة ولا يقطع صلته بالقديم . أفكارها جريئة غير متهورة . تريد للمرأة أن تتعلم وتتحرر وتمارس أعمال الرجال ومهنهم ، من غير أن تتنكّر للزواج والامومة .

وما نجاح مي في مهنتها الكتابية سوى دليل نجاحها في إثبات ذاتها ، وإرضاء طموحها ، والتغلُّب على تقاليد البيئة التي ترى في المرأة مخلوقاً عاجزاً ، وظيفته إمتاع الرجل وإرضاء الناظرين والانكماش في دائرة الخمول والتبعية .

---

(١) يقول سلامه موسى في مقدمة كتابها : « بين الجزر والمد » (نشر مجلة الهلال مصر ، ١٩٢٤) :

« فهي تساير الشباب في رغبته في تجديد اللغـة والميل بها الى التطور والاقلاع عن الجمود . وتسايره ايضاً في نزعتـه الى الاصلاح الاجتماعي او الاشتراكي الذي كان سبباً في نهوض اوربا في الثلاثين السنة الماضية . وفي تشوّقه الى صوفية طليقة من القيود المذهبية والفروق الدينية التي كثيراً مـا مزّقت الوحدة الوطنية والرابطة القومية . ولكنها لما استقرّ في نفسها من ذلك المزاج الذي يقوم لديها مقام الصابورة من السفينة ، نراهـا على الدوام معتدلة بحيث يقرأها الشاب الثائر فيرتاح إليها ، ويقرأها الشيخ المتزمّت فلا يجد مـا ينقم منها » .

كان نجاحها فوزاً للقضية النسائية التي كافحت في سبيلها . كان انتصاراً للقيم والمبادىء التي أحبتها وآمنت بها . وإذا صحّت نظرية فرويد الذي يدعو الى التسامي (Sublimation) بديلاً للنشاط الجنسي ، فإن نجاح مي في نشاطاتها الادبية يعد فوزاً لنظريته ، وحصناً يقيها شرّ العصاب .

فما هي عوامل هبوطها النفسي ؟

قالوا : انها فقدت أصدقاءها وأقرب الناس إليها واحداً بعد آخر . ولي الدين يكن ، شبلي الشميّل ، يعقوب صروف ، اسماعيل صبري ، والدها ثم جبران . فهدّت الخطوب المتوالية عزائمها وحطّمت نفسيتها وساقتها الى العصاب والموت .

هنا يحقّ لنا أن نسأل : ألم تتوقع ميّ أن يداهم الموت أصدقاءها ووالديها ، كما داهم سواهم من البشر ؟ هل ظنّتهم خالدين دون سائر الناس ؟ هل كانت من الضعف والاتكالية في حالة تجعلها عاجزة عن العيش وحدها كما تعيش كثيرات من الأرامل والمطلّقات والعوازب ؟

إن امرأة لها مثل شخصية مي وتفكيرها ، لا يروعها فقد والديها ، وهو أمر لا بدّ أن يختبره كل إنسان في الوجود . ولا تخشى الانفراد ولها من منجزاتها وذكرياتها وأصدقائها رفقاء

تأنس بهم وتركن إليهم[1] . وإنه لمن الامور التي تثير العجب أن هذه الأديبة التي وقفت قلمها على بث الأفكار الشجاعة ، الداعية الى النضال والتحدّي والوقوف في وجه المصاعب ، عجزت عن تطبيق تلك الآراء على ذاتها ، فأهملتها إهمالاً فادحاً .

تقول في مقالتها : « غاية الحياة » : « الحب هو الرابطة الكبرى . كدت أقول الرابطة الوحيدة بين أجزاء الكون وبين الانسان والموجودات . وهو وحده دواء السآمة وبلسم التعزية الفعّال . وكيف نتناول ذلك الدواء ونتغذى بذلك القوت الإلهي ؟ السبيل واحد لا ثاني له وهو العمل » .

وتقول في فكتور هوغو ، من مقال كتبته بمناسبة مرور خمسين سنة على وفاته ونشرته في مجلة « الرسالة » سنة ١٩٣٥ : « استطاع ان يناضل الألم بقوة أقوى من الألم . واستغلّ جميع المصائب والمصاعب والحوائل لإنماء شخصيته واستحثاث مواهبه ،

(١) يقول محمد عبد الغني حسن في كتابه « مي اديبة الشرق والعروبة »، الذي سبقت الاشارة اليه : « والحق أننا نظلم مياً ونظلم البقية الباقية من خلصائها وأصدقائها اذا قلنا انها اصبحت وحيدة بعد موت اسماعيل صبري وشبلي الشميّل وولي الدين يكن وملك حفني ناصف ووالديها وجبران . نعم ، نظلم وفاء هذه البقية الصالحة من أمثال احمد لطفي السيد ، ومصطفى عبد الرازق ، وطه حسين ، ومحمد حسين هيكل وخليل مطران وانطون الجميّل وعباس محمود العقاد وهدى شعراوي . فكيف تصبح مي وحيدة وفي مصر هؤلاء من رواد ندوتها الأوائل ؟» (ص ٤٥ من الكتاب المذكور).

فكانت سيداً في زمن عصفت فيه الأطماع وكثر فيه السادة والتابهون ».

وفي مذكراتها تقول [1] : « قضبان النوافذ في السجن تنقلب اوتار قيثارة لمن يعرف ان ينفث في الجماد حياة ».

وتقول أيضاً : « سعادة الانسان طوع ارادته . فالرجل الشجاع الذكي يعرف كيف يجعل كأس آلامه حلوة المذاق ويحوّل غذاءه الحقير الى افخر المآكل ، ويجعل من الماء خمرته المعتّقة بلونها وصفائها، ومن مضجعه الخشن فراشاً وثيراً، ويعرف ان يحل الأمل محل اليأس ».

وحين سئلت سنة ١٩٣٥ : « ما امنيتك في الحياة ؟ » ، أجابت : « أن تكون لي دائماً امنية ».

ان مذهبها في الفقرات والأقوال التي اقتطفناها أعلاه هو مذهب الأقوياء المتفائلين القادرين على تذليل المصاعب وتحويل الألم الى غبطة . اولئك الذين وصفهم المتنبي بقوله :

وتعظم في عين الصغير صغارها
وتصغر في عين العظيم العظائم

* * *

(١) « مي زيادة في مذكراتها » لجميل جبر ، دار الريحاني ، بيروت ، ص ٦٠ و ص ٤٣ و ص ١٨٠ .

لم تقطع مي صلتها بالناس ولا نشاطها الكتابي دفعة واحدة بعد وفاة والديها[١] بل ظلت تكتب في «المقتطف» و«الرسالة». وكان آخر ما نشرته، في مايو (أيار) ١٩٣٥ مقالة من صنف النثر الشعري عنوانها «هوذا الربيع»، خصّت بها مجلة «الرسالة» التي كانت تنشر فيها أكثر كتاباتها في تلك السنوات. نتاجها في ذلك الحين، على قلّة ما وصلنا منه، ينم على قريحة ما تزال في إبّان نشاطها وتوقّدها. منه اقاصيص ونقد وشعر منثور، وقصيدة فرنسية عنوانها: «ارتياب»، نشرتها منظومة في الفرنسية، منثورة في العربية.

لكن يظهر أنها كانت في السنوات الثلاث التي تلت ١٩٣٢ تعاني آلاماً نفسية دفعتها الى التدرّج نحو العزلة والتلهّي بالتدخين او بمطالعة الكتب القديمة، كتب التواريخ والآثار ومناجاة الأرواح، حتى خطر لها ان تكشف امرها الى نسيبها الدكتور جوزيف زياده، في رسالة كتبتها في ايلول ١٩٣٥ وهذا نصها:

«منذ مدة طويلة لم أعد أكتب[٢] وكلما حاولت ذلك شعرت بشيء غريب يجمد حركة يدي ووثبة الفكر لدي.

---

(١) توفي والدها سنة ١٩٣٠ ووالدتها سنة ١٩٣٢.

(٢) منذ أربعة شهور على وجه الضبط لأن آخر مقالاتها نشرت في أيار من تلك السنة، في مجلة «الرسالة» المصرية.

« إني أتعذب يا جوزيف . ولا أدري السبب . فأنا أكثر من مريضة وينبغي خلق تعبير جديد لتفسير ما احسُّه فيَّ وحولي . إني لم أتألم أبداً في حياتي كما أتألم اليوم . ولم أقرأ في كتاب من الكتب أن في طاقة بشري أن يتحمل ما أتحمل . ووددت لو علمت السبب على الأقل . لكني لم أسأل احداً إلا وكان جوابه : لا شيء . إنه وهم شعري تمكَّن مني .

« لا لا يا جوزيف . إن هناك أمراً يمزّق أحشائي، ويميتني في كل يوم بل في كل دقيقة . لقد تراكمت علي المصائب في السنوات الأخيرة وانقضَّت على وحدتي الرهيبة ، التي هي معنوية أكثر منها جسدية . فجعلتني أتساءل كيف يمكن عقلي أن يقاوم عذاباً كهذا ؟ وكان عزائي الأوحد في محنتي هذه مكتبتي ووحدتي الشعرية فكنت أعمل وأعمل كالمحكومة بالأشغال الشاقة لعلي أنسى فراغ مسكني . أنسى غصَّة نفسي بل أنسى كل ذاتي .

« إنه ليدهشني حقاً كيف اني استطعت أن أكتب هذه الرقيمة . ولعل الفضل في هذا يعود جزئياً الى اللفائف التي أدخنها ليل نهار. أنا التي لا عهد لي بذلك. أدخّنها لتضعف قلبي. هذا القلب السليم المتين الذي لا يزال يقاوم » .

نستخلص من هذه الرسالة :

أن ميّاً مصابة باضطراب نفسي وبآلام لا تعرف سببها .

تشعر بوحـــدة معنوية او نفسية ، وبهذا تشير الى أن وجود أصدقاء حولها لا يبدّد وحدتها . تلجأ الى التدخين لتنفّس ألمهـا كما سبق أن لجأت الى السياحة في سنتي ١٩٣٢ و ١٩٣٤ لتبديد همومها . ولشدة عذابها تفكّر في الانتحار .

قد ينطبق على حالة ميّ هذه نوع من أنواع العصاب يسمونّه «الهبوط النفسي» ،«الإنهيار العصابي» او «الردّة الهبوطية»[١]. تعريفه في « موسوعة ومعجم الطب والتمريض »[٢] : « هبوط عميق وطويل الأمد ، قد يخلقه موت شخص عزيز ، معاناة فشل أو خيبة أمل. يزول بعد زمن عند الشخص السوي لكنه يسيطر على العصابي الذي تتضاءل عنـــده إذ ذاك النشاطات الجسمية والعقليـة ، يصاب بالأرق ، يفقد شهوة الطعـام ، وإذا اشتدت عليه الحال ، يطلب الموت » .

في موسوعة كوليرز[٣] جاء تحت كلمة Psychosis (اختلال عقلي) ما يأتي :

يجب التمييز بين العصاب والاختلال العقلي أو الجنون . ففي

---

(١) Depressive neurosis, depressive reaction, depression.

(٢) Encyclopedia & Dictionary of Medicine & Nursing (Miller. & Keane)

(٣) Collier's Encyclopedia (1968)

الأول (العصاب) تبقى شخصية المريض وإدراكـه سليمين ، لكنه يشكو من حالة مزمنة تعود جذورها ، كلياً أو جزئياً ، الى بيئة ضغط وحرمان في الطفولة، تجعله أشد توتراً من الإنسان السويّ ، عاجزاً عن الاستمرار في العمل وعن الخروج من دائرة الذات ومواجهة المصاعب التي تعترضه . في حـين أن الاختلال العقلي يتصل بتغيُّرات بنيوية غددية يصاحبها خلل في الوظائف الحيوية اجمالاً ، وتبدُّل ظاهر في الشخصية ، ينفصل فيه المريض عن الواقع انفصالاً يكاد يكون تامّاً ، وتتزعزع عنـــده قوى الإدراك والملاحظة والوعي » .

بناء على ما ذكر تكون حـــالة « الهبوط العصابي » أشد انطباقاً على وصف مي لذاتها من حالة « الاختلال العقلي » .

أمّا ما حدث بعد الرسالة التي وجّهتها الى نسيبها فهو ان الدكتور زياده جاءها زائراً في القاهرة وأقنعها بضرورة مرافقته الى لبنان حيث أقامت في بيته مدة تأزّمت فيها حالتها . فنقلت الى مستشفى الأمراض العقليـة (العصفورية) . لكن أعراض التوتـُّر الانفعالي لازمتها هناك فأخذت ترفض الطعام والعلاج . تشكو الظلم والاضطهاد وتشمل بنقمتها الأطبـــاء والممرضات وجميع الذين كانوا حولهـــا . وفي ذلك المكان الشبيه بالسجن كتبت مذكـَّرات سمتها « ليالي العصفورية » لا تزال حتى اليوم

مجهولة المصير .

لكن بعض الأصدقاء الذين بلغهم خبر سجنها وعذابها في « العصفورية » توسطوا لنقلها الى مستشفى الدكتور ربيز في بيروت ، حيث أصرّت على الشكوى واعتزال الناس . ثم تحسّنت حالتها تدريجاً بعد أن تعاون الأصدقاء وعدد من الصحافيين ، منهم فؤاد حبيش صاحب جريدة « المكشوف » ، على نجدتها ومؤانستها . وفي الحديث الذي أدلت به الى جريدتي « الحديث » و « صوت الاحرار » نراها تشكو بمرارة وألم اولئك الذين اتّهموها ظلماً بالجنون ، من أطباء وصحافيين ، وزعموا أنها تكسر الحديد وتخنق الأطفال. ثم تعبّر عن استيائها الشديد من المعاملة الخشنة التي لقيتها في « العصفورية » ومن الإهمال الذي أظهره نحوها رجال الأدب والقانون والجمعيات النسائية »[1] .

وتنال مي من الطبيب الاختصاصي تقريراً بشفائها فتخرج من مستشفى ربيز وتستأجر في رأس بيروت بيتاً تقيم فيه ويعود إليها نشاطها وهدوؤها . ويدعوها صديقها الكبير أمين الريحاني للاصطياف في بلدته الفريكة فترضى وتستأجر هناك بيتاً مجاوراً

---

(١) « باقات من حدائق مي » ، م. س. ص ٢٤٤ – ٢٤٧ .

لأسرة الريحاني وتقضي برفقة اولئك الأصدقاء أيام صفاء واطمئنان .

ثم كانت محاضرتها حول «رسالة الأديب الى الحياة العربية» ، بدعوة من جمعية « العروة الوثقى » في الجامعة الاميركية . تلك المحاضرة التي أقنعت الجموع المتقاطرة لاستماعها بأن مياً في محنتها لم تفقد سحر بيانها ولا قوة تفكيرها .

إلا أن عودتها الى مصر ، بعد سنتين قضتها في لبنان ، بيّنت أن شفاءها كان وقتياً . ففي رسالة كتبتها الى أمين الريحاني بتاريخ ١٥ آب ١٩٣٩ ، بعد مرور سنة أو أكثر على مغادرتها لبنان ، تقول : « لست أطيق الآن أن يؤلمني او يزعجني احد . ولست أنيل الناس ثقتي ، شأني من قبل . وهذا دليل على أن في داخل نفسي شيئاً من الشيب كذلك » .

إن مياً في هذه الفقرة تشير الى التبدُّل الذي طرأ عليها ودعاها الى التزام العزلة التامة . والذي نعلمه من المصادر أنها في هذه الآونة بالذات قطعت علاقاتها بأصدقائها . ردَّت إليهم الرسائل التي تلقَّتها منهم سابقاً ، ولزمت منزلها حيث عكفت على المطالعة ودرس التاريخ والآثار القديمة . وعبثاً كان بعض أصدقائها يحاولون اقناعها بالعدول عن عزلتها تلك ، لكنَّها تشبَّثت بها حتى استولى عليها الذهول وتمكَّنت منها العلة .

وانقطعت عن الطعام حتى وافاها الأجل في ١٩ تشرين الأول ١٩٤١ [١] .

هل تكفي هذه المعلومات لتعليل محنة مي ؟

لنعد الى واحد من أحدث المصادر حول موضوع العصاب ، عنوانه : « أعراض الامراض النفسية » [٢] فنقرأ في ص ١٩٠ :

« مع ان الهبوط العصابي [٣] أحد الأمراض النفسية الأكثر شيوعاً ، إن لم يكن أشيعها على الاطلاق ، لا تزال معلوماتنا عنه في غاية الضآلة » .

ونقرأ ايضاً : « ان مراجعتنا لما كتب حول هذا الموضوع تدل على ان تحديده ما زال مبهماً ، وان هناك خلافاً على تصنيف

---

(١) في مقال للسيد وديع فلسطين نشرته مجلة « الاديب » في عدد سبتمبر (ايلول) ١٩٧٢ ، ص ١٢ ، بعنوان «حديث مستطرد عن مي وعصرها» ان آخر محاضرة القتها مي كانت في منتدى الجامعة الاميركية بالقاهرة ، بتاريخ ٢٣ يناير (كانون الثاني) سنة ١٩٤١ ، وكان موضوعها « عش في خطر » . وفي ذلك الشهر عينه نشرت في مجلة «الطالبة» ، التي كانت تصدرها في القاهرة السيدة ميتزفا عبيد ، مقالاً بعنوان « تحية الاعياد » . واعتكفت بعدها فلم تكتب شيئاً حتى وفاتها في ١٩ اكتوبر (تشرين الاول) من تلك السنة .

(٢) «Symptoms of Psychopathology» edited by Charles G. Costello, J. Wiley & Sons, N.Y. 1970

(٣) الهبوط العصابي : depression

الأمراض العصابية كما على تشخيصها وتسميتها ووسائل معالجتها » .

وفي صفحة ٥ من الكتاب نفسه : « ان التفرقة بين العصاب والاختلال العقلي لا ترتكز على الفروق الأساسية القائمة بينهما ، بقدر ما تعكس موقف المجتمع من الاشخاص المصنّفين في هذه الفئة أو في تلك » .

فإذا واصلنا القراءة ، اتضح لنا أن الخلاف بين الباحثين لا يقتصر على مواصفات المرض وأصول تحديده ، لكنه يتناول أيضاً تعليل الظواهر العصابية وشرح أسبابها . فالعالم المشهور سجمند فرويد ، الذي يربط جميع مظاهر الشذوذ بعوامل جنسية ، يزعم أن العصاب يمثّل ارتداداً الى مرحلة من مراحل الليبيدو أو الطاقة الجنسية القائمة في اللاوعي . لكن نظرية فرويد أصبحت اليوم بائدة ، يجمع تلاميذه وسواهم من أهل البحث على تخطئتها بقولهم ان المشاكل الجنسية ، وإن ظهرت في مقدمة الاعراض العصابية ، لم تعد ذات أهمية مركزية في الموضوع. والعقد المتعلقة بالجنس لا تحسب عاملاً بل نتيجة للبنية الخلقية العصابية .

لقد ظنّ فريق من الباحثين ، في وقت من الأوقات ، أن للأعراض العصابية علاقة باختلال في وظائف الغدد الصماء ، حين لاحظوا توافقاً بين اشتداد التأزّم العصابي وارتفاع كمية صنف من

أصناف الإفرازات البولية عند المصابين . وعارضهم آخرون بقولهم ان منشأ الارتفاع تهيّج في الغدّة النخامية مصاحب لخلل وظيفي في الدماغ وتزايد للافرازات البولية المشار إليها . ويكاد يجمع الباحثون على أن التغيرات الفيزيولوجية الخاصلة في وظائف الغدد إنما هي دلائل اضطرابات نفسية غير معيّنة وليست أسباباً مباشرة لها[1] .

من كل ما سبق أود ان أستنتج :

أولاً : ان موضوع العصاب وسائر الاضطرابات النفسية لا يزال حتى اليوم موضوعاً مبهماً يكتنفه الغموض ، مفتقراً الى مقدار كبير من البحث العلمي والدراسات التجريبية .

ثانياً : ان عوامل العصاب وما يتصل به لا تزال قيد الدرس، وهي في مجملها بعيدة عن الوضوح والتحديد .

وعلى هذا يصح القول ان المعلومات المحدودة التي وصلتنا عن حداثة مي وعن حياتها الخاصة لا تسعفنا على تحديد الدور الذي أدّته البيئة في احداث مرضها ولا على التزام الدقة في تصنيفه أما العوامل الوراثية أو البنيويّة التي أسهمت في ذلك فهي بالطبع في حكم المجهول . وأن ما قيل أو كتب عن نوع

---

(١) ص ١٧٧ من م. س.
« Symptoms of Psychopathology »

مرضها وعوامله ، مهما بلغ من الصحة ، لا يتعدى نطـاق الفرضيات والتكهنات . من هذا النوع رأي محمـد عبد الغني حسن في كتابه : « مي أديبة الشرق والعروبة » :

« ولست أميل الى قول القائلين بأن مياً أصيبت بالعصاب والأمراض النفسية الغادرة لأنهـا كانت عانساً ، في السن التي تتعرض فيها العوانس لهذه الأمراض . فإن حالة مي لم تكن من طروء علة نفسية عليها بسبب الجنس ولكنها حالة قديمة فطرت عليها وركّبت فيها مع الطبع » (١) .

وقد سبق أن أثبتنا في صفحات سابقة من هذا الكتـاب أقوالاً مختلفـة لطه حسين والعقـاد ومصطفى عبد الرازق حول شخصية مي وأزمتها النفسية . وتتعدد الآراء بتعدد الباحثين ، والذين عرفوا مياً ، وكل يحاول أن يلقي بدلوه بين الدلاء .

ثالثاً : في تعليل حالة مي ، يجب ان نتمسك بالمبدأ التاريخي الذي يحذّرنا من الوقوع في « خطأ السبب الأوحد » ، فلا نحصر عصابها في سبب واحد نظير خيبة أمل أو صدمة عاطفية ، أو حزن دفين مسيطر ، أو عوامل فيزيولوجية بحتة . لأن لكل ظاهرة نفسية أسباباً ، لا سبب واحد . والانسان مسيّر دائماً بعاملين : البيئة والوراثة أو الاستعداد الخاص . واختـلاف الأفراد في

---

(١) ص ٤٤ من الكتاب المذكور .

تصرفاتهم واستجاباتهم ينشأ من اختلافهم في العاملين : الذاتي والبيئي .

رابعاً : إذا جاز لنا بعد طول النظر أن نبدي رأياً أو نفرض فرضاً حول الموضوع ، نستطيع أن نفرض لاضطرابها النفساني أساساً ولو جزئياً في التوجيه التقليدي الذي أحاط بتربيتها . فقد كانت – كما نعلم من أخبارها – شديدة الحذر ، تخشى إغضاب الناس ومس شعورهم . إذا انتقدت فبلطف شديد ، وبأسلوب فكه ظريف ، يجتنب العنف والتطرف . تملك لازمها في سنواتها الأخيرة صراع بين رغبتها في إرضاء الجمهور والمحافظة على إعجابه ، وبين الشعور بالعجز عن تنفيذ هذه الرغبة . وسيطر عليها التشاؤم من الطبيعة البشرية بعد أن أساء أقاربها فهمها ومعاملتها . وتملكتها النقمة العلائية على الناس الذين صفقوا لها في صباها وفي إبان نشاطها ، فكأنهم حتموا عليها أن تبقى عند حسن ظنهم وأن تواصل نشاطها السابق لكي تستحق رضاهم ورعايتهم .

كذلك في وسعنا أن نجد لاضطرابها أساساً آخر في تربيتها الرومنطيقية . فقد كانت امرأة مثالية تنشد المستحيل وتتعلّق بالأحلام . ذلك ما يفسّر حبّها لجبران الذي عبّر عن المجهول والمثال ، وإيمانها بمناجاة الأرواح ، وميلها الى درس الآثار التي كانت تحدّث عنها طه حسين حين خرجت بصحبته لزيارة

القرم » وكانت أحاديثها عن الروح المصري القديم من أعمق الأحاديث وأروعها »[1] .

يضاف الى هذا ما طرأ عليها في سن الكهولة من تغيّرات فيزيولوجية تحدث للمرأة عادةً في هذه السن ، إذ يضعف عندها نشاط الغدد التناسلية ، وتتعرّض للوهن والتوتّر العصبي . كما يجب ان نضيف ما أصابها من وحشة وما تعرّضت له من متاعب فقد والديها ، إذ حاول استغلالها المستغلّون واصطياد ما لديها من ثروة ولو قليلة. ثم ما لاقته في مستشفى العصفورية من خشونة وتحقير وسوء معاملة .

جميع تلك العوامل ، كما يظهر ، رسّخت فيها ظاهرة السويداء والحساسية المفرطة . ومع أنها انتعشت وظهرت عليها دلائل الإبلال، عقيب إقامتها في الفريكة بصحبة آل الريحاني، ظلت ثورتها النفسية في حالة كمون يهدّد بالانفجار . وبعد رجوعها الى مصر عادت الى إدمان العزلة واجترار الماضي، حتى لازمها الذهول ورفضت الطعام، وتمكّن منها الضعف والانهيار الذي انتهى بموتها .

أعود فأذكّر القارى ، بأن هذا التحليل ، هو كذلك ، لا يجاوز دائرة الظن والتخمين .

(١) « مي أديبة الشرق والعروبة » ، م. س. ص ١٨٢ .

حلقات مفقودة

من الأمور التي تحول دون تكوين صورة واضحة لشخصية مي وللأزمة التي ألمّت بها ، وجود حلقات مفقودة في أخبار سيرتها وحوادث حياتها .

مذكرات حداثتها تلقي بعض الضوء على شخصيتها في هذه السن. لكن كتبها والأخبار التي أذاعها عنها المعارف والأصدقاء لا تروي لنا إلا النزر اليسير عن حياتها الخاصة وعن علاقتها بوالديها .

نقرأ في رسالة كتبها إليها جبران سنة ١٩٢١ انه رآها في الحلم وفي جبينها جرح يقطر دماً . وبما أنه كان يؤمن بالأحلام أثار هذا الحلم مخاوفه وأرسل يستعلم عن أحوالها . فأجابت بأن والدها أصيب بحادث كاد يودي بحياته لكنها لا تذكر ما هو ذلك الحادث .

وفي حديث أجراه محمد عبد الغني حسن ، صاحب كتاب « مي أديبة الشرق والعروبة » [١] ، مع السيدة ايمي خير ، إحدى صديقات مي ، تقول هذه السيدة إن مياً ضحّت الكثير

(١) ص ٢٠٠ .

في سبيل والديها لكنها لا تمدّنا بتفاصيل عن هذه التضحية .

وحين سئلت مي مرة : « هل للتربية أثر في تغلّب العقلية العالمية على أدبك ؟ » أجابت : « ولدت في الناصرة من والد ماروني وأم أرثوذكسية [1] فلم يكن ثمّ مجال في نفسي للتعصب لأحد المذهبين » [2] .

لكن رحابة صدر مي لم تمنعها من التعلق بدينها وممارسة واجباته على أكمل وجه . وفي رأي العقاد، أحد كبار أصدقائها، أنها خضعت في ذلك لتأثير والدتها التي كانت كثيرة التديّن والمحافظة [3] . كذلك يجب أن نضيف هنا تأثير دير عينطوره .

هناك أمر تصمت عنه مي والمقرّبون إليها . هو موضوع علاقاتها العاطفية والأسباب التي حالت دون رضاها بزواج موافق أو حصولها عليه .

رأى بعض مترجميها أن عدداً من روّاد ندوتها تعلّلوا باتخاذها شريكة لحياتهم لكن اولئك المؤرخين لم يستندوا الى أدلّة تؤيّد رأيهم فأقوالهم بهذا الصدد لا تتعدى الظنون .

تقول وداد سكاكيني متحفّظة : « لعل العقدة التي بقيت

---

(١) والدها من شحتول ، قضاء كسروان ، لبنان . وأمها نزهة معمّر من الناصرة ، فلسطين .

(٢) « مي زياده في مذكراتها » م. س. ص ١٥٣ .

(٣) من حديث أجراه محمد عبد الغني حسن مع العقاد ، نشر في « مي أديبة الشرق والعروبة » م. س. ص ١٩٢ .

كامنة في نفس العقاد بشأن المرأة كانت مي سببها »[1] .

« وقيل أيضاً ان أنطون الجميل آثر ان يبقى عزباً طامعاً في أن ترضى به مي زوجاً ولو جاوزت الشباب »[2] . ويقول جميل جبر : لقد جاهرها غير عاشق بحبه لها ، وعرض عليها غير صديق فكرة الزواج ولكنها لم تقرر ... لأنها لم تجد بين طلاب يدها ، على رفعة شأنهم وصدق شعورهم ، من يؤاخي روحها الغريبة فتأنس به وتستقر »[3] . لكن المؤلف لا يأتي بأي تفصيل ولا يدعم رأيه بأي دليل . وذلك ما يدعو القارىء الى إهمال أقواله بهذا الصدد .

***

أما علاقتها بجبران فلم تسلم من المبالغة والتضليل في كتب الذين تحدثوا عنها . بدأت تراسله سنة ١٩١٢ ، بعد أن طالعت بعض مقالاته في الصحف فلفت نظرها بفرادة أسلوبه وأفكاره. كانت رسائلها تتناول في أكثرها موضوعات أدبية فكرية . فهي تناقش آراءه في الزواج كما بسطها في « الأجنحة المتكسرة »

(١) « مي زياده في حياتها وآثارها » دار المعارف بمصر ، ١٩٦٩ ، ص ١٢٨ .
(٢) المصدر نفسه ص ١٣٠ .
(٣) « مي وجبران » لجميل جبر ، دار الجمال ، بيروت ١٩٥٠ ، ص ٣٤ - ٣٥ .

وتحاول إمداده بملاحظات توجيهية . وهو يجيبها بتلك اللباقة التي ميّزت رسائله الى أصدقائه والمعجبين به . وتتوقف بينهما الرسائل في سني الحرب العالمية الأولى ثم تستأنف عقيب صدور « المواكب » لجبران ثم « المجنون » . فتتناول مي الكتـــابين بالنقد والتجريح في مجـلة « الهلال » وتكتب الى جبران لتعطي حكماً صارماً على الكتابين ، وتبدي أسفها لما في كتابه « دمعة وابتسامة » الذي صدر سنة ١٩١٤ ، من مقالات كانت جديرة بالحذف .

ظلّت الرسائل بينهما لا تتعدى شؤون الفكر والكتب . أهدته كتابها « باحثة البادية » فأهداها كلمة ثناء وإعجاب . ثم جاءها منه رسالة تتضمن عتاباً على عبارة « النشيد الغنـــائي » التي وصفت بها إحدى رسائله إليها . وبعد حين أبدى رغبته في أن تسافر الى اميركا ليلتقيهـــا هناك . لكن ميّاً كانت تطمع بمجيئه هو الى القـــاهرة ، بدلاً من أن توافيه بنفسها الى العالم الجديد .

وأرسل جبران إليها كلمة يعتذر فيهـــا ويصرّح بعجزه عن السفر الى الشرق لأنه مقيّد ببعض الأعمال التصويرية والأدبية . وتستأنف مي مراسلته بعد انقطاع ، وفي إحدى رسائلها ترفع الكلفة بينها وبينه فتسأله أن يمدّها بتفاصيل عن حياته الخاصة :

« ماذا أنت فاعل هذا المساء ؟ أين تقضي سهرتك ؟ أطلب

إليك أن تشركني الليلة في كل عمل تعمله . وأن تصطحبني أنّى ذهبت ... »[1] .

فكتب إليها جواباً فيه دعابة ومداورة . ثم طلب صورتها لكي ينقل رسمها بريشته . وأهداها مسكة ريشة مع أحد رسومه الرمزية . أخيراً تتجرأ على التصريح له بحبها في رسالة كتبتها سنة ١٩٢٤ . وفي رسالة اخرى ، تحدّثه عن شعرها فتقول وفي قولها تعريض وفكاهة وعتاب : « لقد قصصت شعري . وعندما ترى من صديقاتك بعد اليوم يا جبران من هنّ في هذا الزيّ يمكنك أن تذكرني وأن تقول لهن في سرّك أنك تعرف من تشبههن ... عندما رأيت شعري بحلكته وتموّجه الجميل وعقاربه الجريئة مطروحاً أمامي تداعبه يد المزيّن ، شعرت بأسف على هذه الخسارة . غير ان المزيّن ... مضى يصف لي جمال الشعر القصير ومنافعه ومميزاته لا سيما وأنه .. يليق لي كثيراً . وسألته الى كم امرأة يقول كل هذه الكلمات فأجاب اني فيلسوفة . أرأيت هذه الفيلسوفة التي تسعى الى قص شعرها ثم تحزن عليه ثم تضحك لأن المزيّن يعزّيها عن فقده بكلمات مسرحية ؟ وأين تلك الفلسفة والفتاة المذكورة تحدّث بهذا الحديث عن شعر قاتم هو شعر البداوة والسمرة ،

---

(١) «مي وجبران» لجميل جبر ، م. س، ص ٥ ، كذلك باقي التفاصيل عن علاقة مي وجبران ورسائلها .

تحدّث فناناً شاعراً شغف بشعر الحضارة والشقرة . فهو لا يروقه إلا الشعر الذهبي . ولا يحتمل في الوجود إلا الرؤوس ذات الشعر الذهبي » .

كانت هذه الرسالة سنة ١٩٢٥ التي قامت فيها مي برحلة الى ايطاليا ، متنقلة بين مدنها الأثرية ومتاحفها الرائعة . وبعدها أخذ يتضاءل عدد الرسائل بينها وبين جبران. شغل هذا بكتابه الجديد : « يسوع ابن الإنسان » الذي صدر سنة ١٩٢٨ بعد صدور « النبي » بخمس سنوات . ثم شغلته حالته الصحية المتدهورة . وكانت مي في هذا الحين قد قطعت كل أمل بلقاء جبران وأدركت أنها كانت في حبها تلاحق حلماً هارباً .

★ ★ ★

لقد سبق القول أن كتابات مي تدل على منطقية تفكيرها وحكمها على الامور بمقاييس العقل دون العاطفة . ومع هذا نقرأ لها في « ظلمات وأشعة » مقالات يشوبها مقدار من الإبهام وتدل على تململ وحنين الى المجهول . ولعل حنينها هذا وتشوّقها الى الأهداف البعيدة المنال دفعاها الى التعلق بجبران الذي لم تره مرة في حياتها ولم تعرف شيئاً عن حياته الخاصة وقد حالت بينها وبينه جبال وبحار ومسافات طويلة . انه مظهر من مظاهر المناقضات في شخصيتها التي وصفها طه حسين حين قال : « إنها تظهر في مظهرين مختلفين أشدّ الاختلاف . الأول مظهر الأديبة

التي تلقى الرجال وتنظم الاجتماعات الأدبية التي يشترك فيهما الجنسان اشتراكاً حرّاً ، سمحا ، فيه كثير جداً من الرقي والامتياز . والمظهر الثاني هو مظهر مي التي آثرت الوحدة وألحّت على نفسها في العزلة؛ وتدرّجت فيهما تدرجاً بطيئاً في أول الأمر ولكنه سريع ملحّ آخر الأمر »[1] .

أما جبران فكان في علاقته بمي منسجماً مع نفسه ومع مذهبه في الحياة . خاطبها بأسلوبه المألوف ، الغني بالصور والإشارات ، الممتاز بالرقّة والملاينة ، ولم يصرّح لها مرة بأنه أحبها . كان معظم حديثه إليها يتناول همومه الشخصية أو مؤلفاته ورأي مي فيها . إلا أن بعض الذين كتبوا سيرة الاثنين توسعوا في التفسير وسايروا رغبة القرّاء في أخبار الحب والغرام، فزعموا أن العلاقة بينهما بلغت حد الهيام .

من أخطاء النقّاد وواضعي السير أنهم يحسبون بعض القصص والأحاديث التي يخترعها الأدباء سجلاّت بيوغرافية تروي حوادث واقعية جرت لأصحابها . وقد حذّرهم من هذا الخطأ الناقد المعاصر رولان بارت في كتابه المعنون : « ميثولوجيات » وكتاب آخر موضوعه « راسين » ، يحمل فيه على الذين يتوهمون أن الأبطال في بعض مآسي راسين يمثلون أشخاصاً واقعيين في

---

(١) « مي اديبة الشرق والعروبة » م. س. ص ١٧٨ - ١٨١ .

حياة المؤلف [1] .

وقد ارتكب هذا الخطأ اولئك الذين ظنوا أن مقالة مي : « أيها الغريب » موجّهة الى جبران ، رغم انعدام الدلائل على أنها كذلك . وأن الفقرات الواردة في إحدى مقالات جبران : « على باب الهيكل » تعبّر عن تجربة شخصية وتشير الى رغبة جبران في قطع الصحاري والبحار والسفر الى أقاصي الارض ليجتمع بالفتاة التي يحبها [2] .

أما تلك الفقرات فهي :

« هل بينكم من لا يترك أباه وأمه ويسقط رأسه عندما تناديه الصبية التي أحبها قلبه ؟

« هل فيكم من لا يمخر البحر ويقطع الصحاري ويجتاز الجبال والأودية ليلتقي المرأة التي اختارتها روحه ؟

« أي فتى لا يتبع قلبه الى أقاصي الارض إذا كان له في أقاصي الارض حبيبة يستطيب نكهة أنفاسها ويستلطف ملامس

---

(١) ص ١٤٧ – ١٦٦ ، Roland Barthes, «Sur Racine», Ed. du Seuil, 1963,
Roland Barthes, «Mythologies», London, j. Cape 1962.

(٢) « مي وجبران » م. س. ص ٣١ – ٣٢ و ص ٤٦ .

يديها ويستغرب رنة صوتها ؟ »[1] .

مقالة « على باب الهيكل » ، وإن نشرت في مجموعـة « العواصف » (١٩٢٠) تنتمي في روحهـا الى دور « دمعة وابتسامة » الذي امتازت فيه كتابات جبران بالغلو العـاطفي والرقة الرومنطيقية .

وان الذين توسعوا في درس جـبران واطـّلعوا على رسائله وقرأوا مذكـَّرات ماري هاسكل ، يلاحظون أن اهتمام جبران كان محصوراً في مطامحه الفنية والأدبيـة . ومع كثرة تغنـّيه بالحب وتمجيده له في كتبه ، لم يكن من أهل المغامرات الحبـّية ، لأن عشيقته لم تكن امرأة من لحم ودم بل أراتو الهـة الشعر والفن . لكنه يعترف بدينه للمرأة حين يقول لمي : « أنا مديون بكل مـا هو أنا للمرأة ، منذ كنت طفلاً حتى الساعة . المرأة تفتح النوافـذ في بصري والأبواب في روحي . ولولا المرأة الأم والمرأة الشقيقة والمرأة الصديقة لبقيت هاجعاً مع هؤلاء النائمين الذين يشوّشون سكينة العالم بغطيطهم »[2] .

جبران يشير هنـا الى أمه وشقيقته وصديقـاته الكثيرات

---

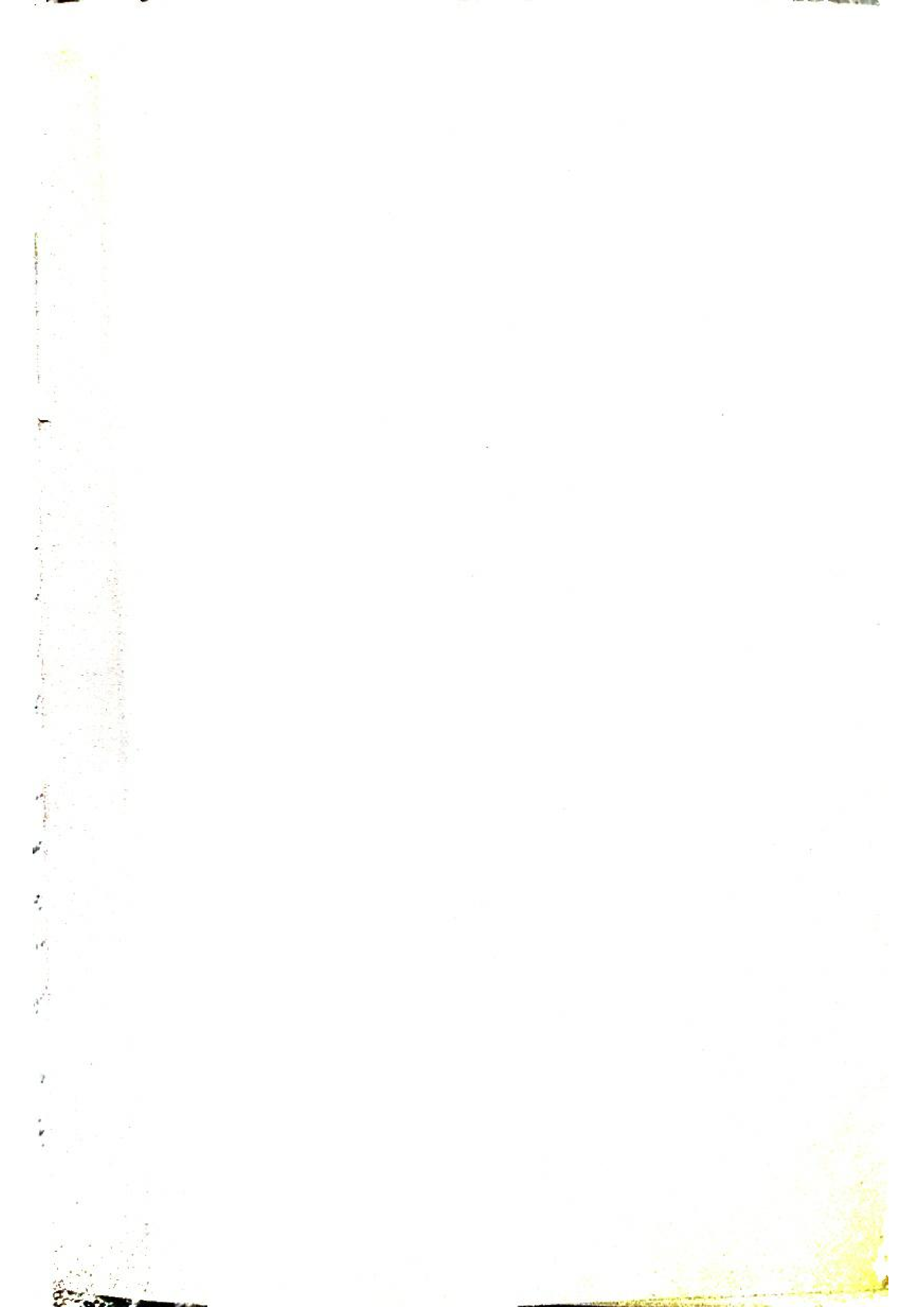
(١) « المجموعة الكاملة لمؤلفات جبران » العربيـة ، بيروت ١٩٦٤ ، ص ٣٨١-٣٨٢ .

(٢) « مي وجبران » م. س. ص ٦٥ .

اللواتي كانت مي واحـــدة منهن . ويشير خصوصاً الى الصديقة الكبرى ماري هاسكل التي دفعها حبها لجبران الى بذل الكثير من طاقاتها الفكرية ووقتها وما لها لمساعدته ورعايته . لكنها لم تلق منه سوى عبـــارات الشكر والامتنان العميق الذي جعله يهديها كتابيه « الأجنحة المتكسرة » و « دمعة وابتسامة » ، ويوصي لها بمجموع لوحاته .

وقد رضيت ماري بهذه المبـــادلة إذ فهمت موقف جبران وعرفت أنه يرفض الارتباط بامرأة ، عشيقة كانت أم زوجة ، لأنه يريد أن يستغل كل دقيقة من دقائق عمره في رسم لوحـــة أو نظم قصيدة أو وضع مقالة ، ويخشى أن يفاجئه الموت قبل أن ينجز ما خطّط له ، وقبل أن يقول « كلمته الواحـــدة الحيّة المجنّحة » التي لا بدّ له من قولها .





المقالية

كانت المقالة أشيع الفنون الأدبية في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل العشرين . جدّد بها الأدباء عهد الرسائل الأدبية التي شاعت في العهد العباسي : « رسالة الصحابة » لابن المقفع ، « الرسالة العذراء » لابن المدبِّر ، رسالة الجاحظ في الرد على الشعوبية ، « رسالة الغفران » للمعري . رغبوا فيها لمحدودية حجمها ، بين ٦٧٠ و ٣٠٠٠ كلمة ، وقبولها لجميع الموضوعات على اختلافها . فهي لذلك صالحة للنشر في الصحف والمجلات وهي الوسيلة الكبرى للاتصال بالجمهور حينذاك. عالجها الشدياق في نقداته ورحلاته ، ابراهيم اليازجي في أبحاثه اللغوية والعلمية ، بطرس البستاني في المجلات التي أنشأها ، فرح أنطون في مجلة « الجامعة » ، شكيب أرسلان في أبحاثه الأدبية ، الريحاني في « الريحانيات » ، جبران في معظم مؤلفاته العربية . كذلك نعيمه ، المنفلوطي ، مارون عبود ، ولي الدين يكن ، المازني ، العقّاد وسواهم .

أما مي فقد بدأت حياتها الأدبية بيوميات وأشعار وجدانية ، من النوع الذي ينتجه الأدباء عادة في أول عهدهم

بالقلم . انصرفت بعدها الى تحبير المقالات العربية والفرنسية ونشرها في الصحف . وظلت المقالة اللون الأدبي السائد عندها ، فأكثر مؤلفاتها مجموعات من المقالات المنوّعة الأغراض بين نقدية اجتماعية ، تأملية وجدانية وبحثية أدبية .

كذلك تتنوع مقالاتها من حيث الأسلوب . منها مقالات المناجاة ، التي وضع أسلوبها جبران ، مثلاً : « يا سيد البحار » ، « عند قدمي أبي الهول » . المقالة الغنائية نظير : « العيون » ، « نشيد نهر الصفا » . وفي كلا النوعين تنهج طريقة النثر الشعري الذي سيأتي وصفه في معرض حديثنا عن أسلوبها الفنّي .

أما مقالات البحث والنقد فتمتاز برشاقة الأسلوب وتكتسب من شخصية الكاتبة طابعاً يحبّب قراءتها رغم انقضاء المناسبة التي كتبت فيها .

في وسعنا أن نقسم مقالاتها البحثية والنقدية الى صنفين . الأول قصير النفَس ، يرتكز على فكرة واحدة رئيسية ، يمتزج فيه البحث بالفكاهة والظرف ، ويعتمد أسلوباً صحفياً مجدداً في اقتباس عبارة الشعب في الظرف المناسب ، واقحام عبارات السخر اللطيف والغمز البريء . من هذا الصنف مقالة عنوانها : «فلان ومدامته» نشرتها في مجموعة «بين الجزر والمدّ» وعارضت فيها استعمال « مدام » بدلاً من « زوجة » أو « قرينة » . جاء فيها :

« طالما وقع نظري على هذه الكلمات (فلان ومدامته) ومع أني ألفتها فهي تضحكني كل مرة، لأنها تذكّرني بذلك اللبناني الذي أضاع زوجته في شوارع نيويورك ومضى يسأل البوليس عنها بلغة زعمها انكليزية حين قال : « يا مستر ، وين راحت هالمستيرة ؟ »

« لا يخفى على ذوي « المدامات » وغيرهم أن « مدامتي ومدامتك ومدامته » ليست دون « مستيرتي ومستيرتك ومستيرته » فكاهة مستملحة ... » .

وبعد أن تتبسط مي في الموضوع بعرض شواهد واختبارات محلية وغربية وتاريخية ، تختم بقولها :

« ألا رحمة يا حملة الأقلام !

« أجيرونا من وقر هذه الكلمة الممزّقة غشاء المسامع! تنازلوا عنها كرماً في مطلع هذا العام الجديد! وعليكم بالزوجة والقرينة، وبزوجة فلان وقرينة فلان ، ريثما تتحفنا الفطنة منكم بلقب سعيد لا حلّ فيه ولا ربط ! » .

يلوح لمن يقرأ مقالات مي ورسائلها أن الظرف وحب النكتة من مزاياها البارزة، لا سيما في مقالات التعليق والنقد الاجتماعي. خذ مثلاً المقالة التي خاطبت فيها الرقيب حين فرضت سلطات الحماية البريطانية في مصر رقابتها على الصحف والمطبوعات سنة

١٩١٦ ، أثناء الحرب العالمية الاولى :

« أسمعك مزمجراً يا سيدي الرقيب ! وقد اقترب قلمك من جملتي هذه يقصد الفتك بهـــا ! فاصغ إلي غير مأمور : لا أنت جندي ألماني ولا أنا جندي فرنسوي ، ولا هذه الصفحة كنيسة ريمس ! فكن حليماً ولا تحذف منها شيئاً »[١] .

وفي مقال انتقادي عنوانه « بين الأدب والصحافة »، نشرته سنة ١٩١٦ ، هـاجمت بهذا الأسلوب عينه عـادة التملـُّق التي صارت زياً شائعاً عند الصحافيين فقالت :

« أصبح الصحفيون زمرة قوية تخشاها الارض ومن عليهـا ! فهم ينتقدون القوانين ، ويحاجـُّون الحكومـات ، ويسنـُّون أوامرهم للبشر ، ويبسطون آراءهم لأولي الحل والعقد ، حتى إذا شعروا بأن الفكرة التي يبدونها بعيدة عن ذهن القارىء، عمدوا إلى أسماء التحبّب ، فدعوه تارة « القارىء اللبيب » ، وطوراً « القارىء الكريم » ، وحيناً « القارىء العزيز » ، الى غير ذلك من النعوت الطيبة التي ترضي الجميع .. فيقنع القـارىء بأنه لبيب وكريم وعزيز.. فعلى كل لبيب وكريم وعزيز أن يفكـِّر أن ما جاء في المقال هو الحقيقة بعينها ! » .

في مقالاتها الصحفية ، نلاحظ ميلها الى ابتداع العنـــاوين

---

(١) من « سوانح فتاة » منشورات مؤسسة نوفل – بيروت .

الطريفة ، اللافتة للنظر ، أو الناطقة برغبتها في التجديد .

في « الصحائف » مقال انتقدت به الدكتور شبلي الشميل ، وكان صديقاً لها ولأسرتها ومن روّاد ندوتها ، انتقدت تعصّبه للعلم الحديث ولنظريات داروين ، تعصباً دعاه الى ازدراء الادباء واعتبار أدبهم ثرثرة فارغة . فجعلت عنوان مقالتها فيه : « الدكتور شبلي شميّل – الشاعر » وأثبتت بأمثلة من شعره أنه واحد من اولئك الذين احتقرهم وأهانهم ، وبذلك ضمّنت العنوان والمقال عتاباً لطيفاً وسخراً ظريفاً .

في مقالة لها حول المجمع اللغوي ، في « بين الجزر والمد » ، تناقش موقف الشك الذي وقفته الصحيفة الانكليزية « الاجبشن ميل » من ذلك المجمع ، وتجعل عنوان المقال : « الاجبشن ميل تضحك » .

وفي مقال تنتقد به تسميات غير مناسبة يستعملها المصريون لشوارعهم ، تأتي بهذا العنوان الطريف : « امبراطور يصير ملكاً » . وتعني أن رصيفاً في بور سعيد يحمل اسم الامبراطور النمسوي فرانسوا جوزيف، قد طلب أهل المدينة استبدال اسمه باسم ملك ايطاليا ... ثم تتساءل عن الغرض من استعمال مثل هذه الأسماء الغريبة لشوارع مصرية !

أما مقالاتها الطويلة النفس التي تبحث فيها موضوعات تاريخية، أدبية أو فنيّة، فسيجري الحديث عنها في فصل لاحق.



الخطيبة

كان نبوغ مي من ذلك النوع الشامل الذي ضمن لها التفوّق في كل ما عالجته من فنون شفهية أو كتابية . وكان عصرها عصر منابر وخطب ، استيقظت فيه روح الوطنية فأنتج مصطفى كامل وسعد زغلول وأديب اسحق . انتشر الوعي الاجتماعي فكثرت جمعيات البرّ والإحسان وحفلات التكريم والتأبين التي فتحت المجال واسعاً أمام الشعراء والخطباء . وكانت مي قد أخذت تمارس الخطابة أثناء زيارتها للبنان حيث أقيمت لها حفلات التكريم بين ١٩١١ و ١٩١٢ . وفي أول خطبة ألقتها في مصر سنة ١٩١٣ ، أمام حشد من الأدباء اجتمعوا لتكريم الشاعر خليل مطران ، بلغت من الإبداع درجة حفزت الأدباء والمتأدبين على دعوتها للخطابة في معظم المناسبات والحفلات الأدبية .

سجّلت لها الكتب ما يزيد على عشرين خطبة ، يتراوح طولها بين الخمس صفحات والثلاث عشرة ، ما عدا الخطب التي لم تحفظها الكتب . وبمراجعتنا أيّاً من خطبها نلاحظ أنها كانت تعنى أشد العناية بإعداد خطبها . فالخطابة عندها فنّ يحتاج إلى

حذق وإتقان وليس مجرّد كلام مرتجل . ومع مراعاتها للأصول التي وضعها أرسطو لهذا الفن ، نجحت في تكوين أسلوبها الخاص الذي يحمل طابعها ويعبّر عن شخصيتها .

تستهلّ خطبتها – عادة – بمقدمـــة وجيزة لافتة للنظر ، تستوحيها من المناسبة ، أو من مثـل قديم وقول شائع . أو من فكرة علمية كالتي افتتحت بها خطبتها في وداع الاستاذين محمـد الخضري ومحمد المهدي في الجامعة المصرية . قالت :

«في أعالي الفلك صورة سماوية تدعى «الشلياق». أجمل نجومها نجم من القدر الأول اسمه « النسر الواقع » وهو درة فريدة تبهر الأبصار زرقتهـــا اللامعة . رصده علماء الفلك فوجدوه محجّة الكواكب . وجـدوا أن جميع الكواكب المنظورة تندفع نحوه في الفضاء وهو لبعده الشاسع لا ينتهي إليه نظامنا الشمسي إلا بعد ملايين الدهور . . »[1] .

ثم تنتقل من وصف هذا الكوكب إلى ذكر القوة التي مزّقت حجب المجهول وكشفت أسرار هذا الكوكب الجديد . ألا وهي قوة الفكر الإنساني وبذلك تمهّـد لوصف مآتي اثنين من نجوم الفكر ، هما السيدان اللذان أقيمت لتكريمهما تلك الحفلة .

(١) « كلمات وإشارات » (نشر مؤسسة نوفل – بيروت) ص ٨٠ .

تمتاز خطبها بالوحدة والتسلسل والحرص على أناقة العبارة وجودة الوصف . ولها أفانين في الكلام تثير انتباه السامع إذ تنقله من الوصف والسرد والتقرير إلى استفهام يليه جواب. وبينما هي تخاطب الجمهور إذا هي تخاطب المهد أو تخاطب المحسنين في كل أرض ومكان . تلتفت من صيغة المتكلم الى صيغة المخاطب . من النفي إلى الإثبات . تستعمل التعداد والتقسيم الفيثاغوري : « أولاً .. ثانياً .. ثالثاً » الذي يدفع السامع إلى الإصغاء إذ يقوده إلى تتبع الأقسام وانتظار ما يلي . تقارن بين ماض وحاضر فتتخذ من الأول عبرة ووحياً . تقارن بين الطبيعة والانسان أو بين الشرق والغرب . تنتقل من العام الى الخاص أو من الخاص إلى العام، رغبة في التنويع والاستنتاج . ولا تهمل النكتة الطريفة والتحية اللبقة والهتاف الصادر عن عفوية وحماس .

في خطبها كما في سائر نتاجها ، تكثر من الإشارات والاقتباسات التي تنم على ثقافتها الواسعة وتبحرها في العلوم المختلفة ، كما تعطي آراءها وزناً وقيمة . تتنوّع اقتباساتها بين أمثال وحكم وأشعار مختلفة المصادر ، وإشاراتها بين علمية وتاريخية . وتمتاز فيها بمراعاة شعور جمهورها وتفكيره . ففي خطبة ألقتها في بكفيا ، لبنان ، أشارت إلى فضل الفينيقيين في استنباط الحرف وتبديد غيوم الجهل وقطع البحار سعياً وراء المجد والمغامرة :

« كان البحر قبل الفينيقيين عصيّاً ، فعالجته همتهم القعساء فأطاع . وسيَّروا فيه سفنهم طولاً وعرضاً ، حاملين إلى بلاد قامت على شواطئه ثمرة أتعابهم الفكرية واليدوية ومبادىء المعارف الاجتماعية » .

وإذا خاطبت جمهوراً مصرياً استوحت الأساطير المصرية لتعزيز موضوعها وتوسيعه . في خطبة عنوانها « الدموع »، ألقتها في حفلة إنشاء « ملجأ الحرية » ، وبينت فيها أهمية الدموع من النواحي الصحية والاجتماعية ، قالت :

« إنما النيل مدين بفضله لسحر الدموع. ضاع الإله اوزيريس يوماً فالتاعت الإلاهة ايزيس لفراقه وجلست على شفة النهر تبكيه . إذ ذاك اضطربت أعماقك أيها النيل العظيم ، (لنلاحظ هنا جمال الالتفات من الغائب إلى المخاطب) فاندفعتَ متدفقاً ، جاعلاً من ربوعك التربة تبراً ، تاركاً سهولك التاريخية في ربيع دائم ! كل عام يهيجك ذكر دموع آلهة الأسرار والأشجان فينتظم منك الفيضان وفياً . وستظل على العهد أميناً ما بقي أبو الهول محدقاً في الفضاء ، وبقيت المجرّة منبسطة في عقيق السماء »[1] .

من محاسن طريقتها انها تتخذ لخطبتها عنواناً طريفاً وموضوعاً

---

(١) « كلمات وإشارات » م. س. ص ١١٠ — ١١١ .

موحّداً ترتكز عليه كلامها وتربط مـا تفرّق من أجزائه . ففي حفلة « جمعية الاتحاد والاحسان السورية » ، وهي جمعية خيرية ، تتخذ من الحفلات الخطابية وسيلة لجمع التبرعات ، جعلت مي عنوان خطبتها : « ظل الإله الثاني »[1] ، فبينت كيف أن المال – أو الإله الثاني – يتحكم في مصير الشعوب فيرفع عروشاً ويدك غيرها . يخلق النعم والبركات ويحدث الفواجع واللعنات . وما جمعيات البر والإحسان، ومراكز الإغاثة والاسعاف إلا الحواجز التي تقف في وجه الانفجارات الحاقدة والثورات الداميـة التي يقوم بها المحرومون والمعدمون بتحريض من دعاة الحرية والإخاء الذين «لم يتآخوا بغير التمرد والجهل القتال،والرغبة في سحق من هو فوقهم طمعاً في ماله وجاهه »[2] .

أما قدرتهـــا على ابتكار البراهين وابتداع الأفكار المقنعة والحجج الدامغة ، فيكفي أن أذكر مثلاً عليهـا الفقرة الآتيـة التي تبين لنا مقدار واقعيتها وصدق فراستها ، لأن ما قالته منذ ستين عاماً لا يزال صحيحاً اليوم :

« الثورة العثمانيـــة ! تلك الحركة العظيمة غير الدموية التي أذهلت الغرب . لم نستفد منها كثيراً لأن الأمة لم تشترك فيهـا اشتراكا محسوسا ، بل كانت حركة عسكرية ، قصر فيها التبديل

---

(١) « كلمات وإشارات » م. س. ص ١٢١ – ١٢٧ .

(٢) « كلمات وإشارات » م. س. ص ١٢٥ .

على هيئة الحكومة ، لكنها لم تغيّر من أخلاقنا شيئا . يجب أن تكون الثورة فردية داخلية قبل أن تصير قومية عمومية . ثورة في الأفكار . ثورة في المبادىء . ثورة في الاحتياجات . ثورة في المطالب . ثورة في كيفية المعيشة . يجب أن نغيّر طبائعنا قبل أن نغيّر حكّامنا . يجب أن يعكف كل منا على إصلاح نفسه قبل أن يتصدّى لإصلاح الجمهور . يجب أن نفهم معنى التضامن وأن نتكاتف لا لغايات شخصية بل للخير العام !

إن رغبتها في تعزيز الفكرة واجتذاب انتباه السامع ، دعتها إلى الإكثار من المقارنة والجمع بين الأضداد ، عملاً بالمثل القائل : «وبضدّها تتميّز الأشياء» . قالت من خطبة « الدموع »[1] التي سبقت الإشارة إليها :

« ما رأيت عمارة تزخرفها يد الباني إلا خنقتني الغصات إشفاقاً على من لا مسكن لهم . ولا وقع نظري على الأثواب النفيسة والجواهر المتألقة إلا التاع قلبي على أيتام ليس عندهم ما يلبسون . ولا دخلت مقاصف سهراتنا وأفراحنا أو شهدت أفواج الوافدين على « سولت » و « جروبي »[2] ومحالّ الملاهي والسمر الكثيرة إلا ضاقت مني النفس كمداً على فتيات مصريات طالما رأيتهن باحثات بين ما تلقيه المنازل الكبرى من فتيت

(١) « كلمات وإشارات » ص ١٠٣ — ١١١ .

(٢) صالتان فخمتان لبيع الحلويات في القاهرة .

يصلح للغذاء » .

كذلك في الخطبة التي عنوانها « الإخاء » ، يتضح ولعهـا بالمقارنة حين تقارن بين الحرية والمساواة والإخاء ، شعار الثورة الفرنسية فتبيّن أن الكلمة الثالثة أجمع للأولين وأدنى الى حقيقة الوجود ، لأننا إذا اعتبرنا الحرية المطلقة غير ممكنة وأن المساواة لا تستطيع أن تكون إلا نسبية أو جزئية ، فليس منا من ينكر أن الإنسان اخو الانسان ، مهما باعدت الأحوال والحواجز بين البشر .

ثم تقارن بين عاطفة الإخاء والنهر الذي يتفجّر ويجري متدفقاً ليوزع مياهه على السهول والحقول . وتردّد قول أوغست كونت : « إن الإخاء يجب ان يكون ديناً اجتماعياً عاماً وان الإنسانية يجب أن تكرّس أعياداً لأعاظم رجالها وكبار محسنيها » .

وتضيف : إن المؤسسات التي تبنى لكفاح البؤس والفاقة في عصرنا هي أعظم قدراً من أهرام مصر . هذه رفعت « بعرق البؤساء ودم العبيد »، وتلك ترفع « بعطايا المحسنين وكرم ذوي الأريحية » . هذه لم تفهم أسرارها إلا الأقلية النادرة وتلك تتهذّب في مدارسها الأكثرية البائسة فتسمو في سلّم الانسانية ويرتقي بارتقائها المجتمع بأسره .

مي والنقد الاجتماعي

مي في تفكيرها الاجتماعي تمثّل الانفتاح اللبناني على الأديان والثقافات . كما أن المنزلة التي يحتلهـا النقد الاجتماعي في نتاجهـا تعكس الاتجـاه الذي يميّز الأدب المصري منذ أواخر القرن التاسع عشر حتى اليوم .

كان الأدب الاجتماعي في مصر يتوزّع على ثلاثة ميـادين : الخطابة ، الصحافة ، التأليف المقالي والقصصي .

في الفصل الاول من هذه الدراسة ، الذي تناولت به عصر مي ، أشرت الى أهمّ المقاليين والصحافيين من أدباء النقـد الاجتماعي . أما النقد الذي يتخذ أُسلوب القصة فقـد كان ألمع روّاده في ذاك الحين محمـد المويلحي [١] في « أحاديث عيسى بن هشام » ، أو المقامـات المصرية . وقد تبعه سلسلة طويلة من القاصّين ، من محمد حسين هيكل الى نجيب محفوظ .

وكان لميّ نشاط مثمر في كل من ميادين النقد الاجتماعي .

---

(١) عاش محمد المويلحي بين ١٨٥٨ و ١٩٠٦ .

راسلت الصحف ، وألقت الخطب التي تعالج الموضوعات الاجتماعية ، ووضعت فيها المقالات الطويلة النفَس ، فضلاً عن كتابين يتخصّص كل منهما في ناحية من نواحي البحث الاجتماعي. الأول « كتاب المساواة » ، تعالج فيه مشكلة من أعقد مشاكل المجتمع . والثاني ، « باحثة البادية » ، تنقد فيه آراء ملك حفني ناصف ، مؤلفة « النسائيات » ، والرائدة في ميدان النهضة النسائية .

ليس لميّ في نقدها الاجتماعي مذهب خاص . إلا إذا عددنا التزام الأوسّط الذهبي والاعتدال المنطقي مذهباً فلسفياً .

إذا راجعنا كتابها « المساواة »[1] حيث تتصدّى لمشكلة من أدق المشاكل وأشدّها خضوعاً للمناقشة ، نجدها تستعرض الأنظمة السياسية الكبرى منذ نشوئها حتى العصر الحاضر فتقول ان التمايز بين الطبقات وبين الأفراد وبين مظاهر الطبيعة ، ظاهرة أصلية عريقة ولولاها لما كانت الخليقة . ثم تصف نشوء كل من الانظمة : الملكية ، الارستوقراطية ، الديمقراطية ، فتبيّن ان كلاً منها كان مرحلة اساسية في تاريخ البشر وأن كلاً منها ساهم في بناء الحضارات . وتضيف ان الارستوقراطية ضرورية لمنفعة الامة بما تصونه من مبادىء النبل

---

(١) منشورات مؤسسة نوفل – بيروت ، ١٩٧٥ .

والكرم بفضل التقاليد المتوارثة . لكنها تنتقد فوضى الألقاب المتوارثة في الغرب كما في الشرق (ص ٣٤-٣٩) . تشرح نشوء العبودية ومنها عبودية المرأة . وتنتقل الى ظهور الديمقراطية في بلاد اليونان حيث دعت الحاجة الى إشراك أبناء الشعب في الحرب بعد ان كانت ممارستها محصورة في الفرسان المنتمين الى الارستوقراطية . « فأرغم الأشراف على تعزيز الجيش بفيالق المشاة من الشعب... فشعر هؤلاء بضرورتهم لحفظ كيان الوطن، وانبروا يبثّون في البلاد الثورة والشقاق حتى ظفروا بالمساواة المدنية والسياسية » . (ص ٦٩) . في روما ، بُنيت الديمقراطية على العبودية لأنها استثنت العبيد من حق المشاركة في الحكم وسخّرت الطبقة السفلى للخدمة والاعمال الدنيا ، في حين تفرّغت الطبقات العليا للحكم والقضاء . وتقارن الكاتبة بين الديمقراطية القديمة والديمقراطية الحديثة التي تحترم حقوق الفرد وتمنح جميع الطبقات حقوقاً مدنية . لكن الديمقراطية الحديثة يشوّهها حب الاستعمار والتفاوت الاقتصادي وسيادة الظلم والحرمان في داخل الاقطار التي تعتنقها مذهباً » .

من ثمَّ تنتقل الى ظهور الاشتراكية وفلسفة ماركس القائمة على المادية التاريخية والثورة على سوء توزيع الانتاج . تميز بين الاشتراكية السلمية التي تدعو الى تغيير النظام بوسائل غير حادّة، والماركسيّة العنيفة التي ترى في القوة وسيلة لتحقيق غاياتها . وفي هذا السبيل « أنشئت شركات التضامن ونقابات التعاون بين

العمّال ، حتى اذا آن الأوان ، قاموا بالحركات الثورية المطلوبة . وقد استحسن ماركس الدكتاتورية لتخويل هذا الانقلاب الواسع ما يحتاج اليه من الشدّة والاتقـــان ، بل رأى أنه يتحتم حصر الأمر والنهي في يد زعيم مطلق »[1] .

تردّ مي على الماركسية بقولها : « ان في « المادية التاريخية » التي يستند اليهـا ماركس وأصحابه أكبر مكذّب لأمـــاني الاشتراكية لأنها اذا صدقَـت من حيث ظهور المرتبة الضرورية للاجتماع على المراتب الاخرى ، فهي كذلك تـُثـْبت بلا إثبات وجود التغاير الملاصق للانسانية في جميع تطوراتها .

« ان تقسيم العمل ملازم لأنواع العمل ولدرجة عقول الناس ودرجة كفاءتهم . وهذا التقسيم المحتوم هو الذي يخلق المراتب المختلفة . لذلك كان هذا المذهب القائل بالمساواة أظلمَ ماحِق لها... أترى المساواة في سبك العسجد والطين في قالب واحد ؟ وهل الإنصاف في تجريد الغني ليعطى المعـدم ؟ وهل الحرية في توحيد العقل الكبير والقلب النبيل مع الفكر السخيف والنفس الزحّافة ؟ وهل يقوم حسن التوزيـع باستبدال صك بصك وعهد بعهد؟... ومن هم اولئك الموزّعون؟ أهم آلهة لتضمن لنا نزاهتهم وعدالتهم ؟ ... إن أكبر ما تعاب به الاشتراكية المتطرفة نفخ الخامل والكسول والجبان ، وإيهامهم أنهم في الدنيا الكل في

(١) المصدر نفسه ص ٧٨ .

الكل ... الأوجاع الحالية مريرة لكن الدواء سيكون أوجع لأنه سيظلم الأبرياء ويقضي على جمال كثير ... الغد للإشتراكية لكنها لن تكون أوفى من الديمقراطية في تتميم وعودها »[1]

في الفوضوية[2] تقول انها تدعو الى قلب جميع الأنظمة وتسليم الفرد إدارة شؤونه من غير رقابة أو سيطرة . والمؤتمر الفوضوي المنعقد في لندن ١٨٨١ قرّر شرعية كل وسيلة لإبادة النظـام الحـالي : « ان الفوضوية مذهب محزن مروّع وهو على حداثة نشأته ذو تاريخ مضرّج بالدماء » .

وتضيف : « قد يثور الانسان لأنه خامل تلهبه الغيرة ولا يستطيع الوصول الى مرتبة من هو فوقـه فيجرب المشاغبة والنقض والحرق والتشنيع . فإن نال بغيته فذاك ، وإلا فقـد حرم غريمه من النعمة وذاك في النفس المنتقمة سرور كبير » .

وتنقل عن لسان كاهن رافق الجنود في الحرب العالمية الاولى وشهد ويلاتها وفظائعها : « إن الانسان اذا لم يكن له من الدين او من الاخلاق الفردية او من القانون وازع ، وتمكّن من اخيه ، فالضواري دونه فظـاعة وحيلة في ابتداع اساليب التعذيب ، للذّة القسوة والإيلام .

(١) « المساواة » ص ٩٧ – ٩٩ .

(٢) « المساواة » ص ١٠١ ـ ١١٢ .

ان ميّاً في عرضها السريع للمذاهب والاحزاب السياسية ، تلتزم الموضوعية البعيدة عن الانفعال . تبيّن فضائل كل نظام وعيوبه ولا تنحاز الى واحد منها ، إذ تختم بكلمة تشاؤمية :

« وهمان كبيران يقودان الحياة . في احدهما يحسب المرء نفسه حرّاً في العبودية على شرط ان تغيّر اسمها وشكلها... وفي الآخر يعتقد المرء بصلاح البشر الفطري اعتقاداً مطلقاً »[1] .

وكأني بها تقول ان الذي يصنع المذهب او النظام ليس الشعارات والأسماء والعبارات المبهرجة الخادعة . ولكن يصنعه البشر . وهؤلاء معرّضون للخطأ والضلال ، يفسدون المذهب بفسادهم او يصلحونه بصلاحهم . وقد أخطأ من يعتقد « بصلاح البشر الفطري اعتقاداً مطلقاً » .

إلى جانب هذا ، يبدو ان أسلوبها في البحث لا يلتزم دائماً الاصول العلمية . فهي تبحث موضوع المساواة من غير أن تعرّف هذه الكلمة تعريفاً دقيقاً يبيّن ما المقصود بها : أمساواة مطلقة أم نسبية ؟ أمساواة أمام القانون ، أمساواة في المنزلة الاجتماعية أم في الوضع الاقتصادي ؟

ثم تتنبأ بفوز الاشتراكية العتيد من غير ان تدعم نبوءتها

---

(١) « المساواة » ص ١٢٨ .

ببراهين مقنعة ، سوى أنهـــا تقول ان الاشتراكية « لن تكون أوفى من الديمقراطية في تتميم وعودها » .

على أنها بعد ذاك العرض الشامل وبعد المناقشة المسلّية التي تـُجريها على ألسنة المجتمعين في منزلها ، والتي أرادت بها الترفيه عن القارىء بتغيير الأسلوب وتنويـع الاشخاص ، تحاول اتخـاذ موقف شخصي واقتراح حل وسط تشرحه في الرسالة التي يوجّهها إليها الاستاذ عارف في خاتمة الكتاب .

في هذه الرسالة يشير الاستاذ الى تجـــاربه الشخصية في الموضوع ، والأرجح انهـا تجارب مي نفسها . يقول انه كان في وقت مضى متحمّساً للمساواة ، غاضباً على اهل النعمة والثراء ، يودّ لو « يكون لحمه قوتاً للجائع ودمه شراباً للظامىء » . لكن الاختبار علـّمه خطأ موقفه . فأراه ان الانسان لا يختلف عن غيره طبيعة وإن اختلف مذهباً . « إن أنانيةً تسربلت بالحرير ليست بأطمع من أنانية ارتدت الأطمار » .

ثم ينفي عن نفسه تهمة الارستوقراطية ويثبت إيمـــانه بالديمقراطية ، وإن لم تكن حتى اليوم سوى حلم جميل او مجرّد نظرية . يؤمن بالثورة على كثير من الأنظمة والعادات والتقاليد التي تخالف المنطق وتناقض الذوق العصري . يشير الى التطور الذي احدثته المؤسسات الخيرية والنقابات والتعاونيـــات التي أخذت تحرّر العامل من استبداد صاحب العمل ، وأخـــذت

تـُنذر بتبدّل الأدوار !

ويقول متسائلاً : إذا قضينا على الحرمانات التي يخلقها الظلم الاجتماعي ، فمن ينقذنا من الحرمانات الخرساء ؟ من يقينا ظلم الطبيعة و كوارثها وامراضها . وبلايا القدر ومعاندات الدهر ؟

لكنه رغم ألمه من شرور الواقع ومساوىء الحاضر ، يحتفظ بشعور التفاؤل ويأمل ، نظير زردشت ، ان يأتي يوم يتغلب فيه النور على الظلام . يصرّح بأنه لا ينتمي الى حزب لكنه يضمّ في تفكيره العناصر الصالحة من كل مذهب . « لو اردت ان أعرّف الحزب السياسي او الاجتماعي الذي انتمي إليـــه ، لقلت اني ارستوقراطي ، ديمقراطي ، اشتراكي سلمي ، اشتراكي ثوري ، فوضوي ، عــدمي ، الى آخره . كل ذلك دفعــة واحدة وبوقت واحد .

« ولو كنت ذا كلمة مسموعة بين حكومات العالم ، لجعلتها تـُعرض عن اصطخاب الاحزاب وتناحرها. . .ولسننت القوانين الآتيـة وأحكمت تنفيذهـــا قبل إصلاح الشوارع وإنشاء المعارض . . . » .

هنــا يلخّص الاستاذ عــارف برنامجاً إصلاحياً ، يشمل الإصلاحات المطبّقة اليوم في الأقطار الحديثة التي تتبنى منهجاً اشتراكياً معتدلاً . او في الاقطــار الرأسمالية التي جرت شوطاً بعيداً في ميدان العدالة الاجتماعية .

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

أخيراً : إذا كان لا بد من تنفيذ حكم الإعدام في كبار المجرمين ، فيجب تجريد عملية الإعدام من مظاهر القسوة والتعذيب ، ويجب إجراؤه بطريقة سريعة نظير الكرسي

الكهربائي – مثلاً – الذي يخفف من عذاب المحكوم عليه ويهوّن عليه لحظة الموت .

★ ★ ★

هذه خلاصة الرسالة التي نلمح من خلالها تطلّعات الكاتبة وتحمّسها الاجتماعي ، وتتبيّن عدم انحيازها لأي من المذاهب ، لأنها في دراستها كانت باحثة ناقدة لا داعية متحمّسة . لكن أسلوبها الذي يلتزم الرويّة والتدقيق وإن اتخذ أحياناً شكلاً خطابياً ، واستنتاجاتها الجادّة الرصينة ، تسجّل لها انتصاراً كبيراً في معالجة « موضوع جموح » يستعصي على اكثر الباحثين ، جديد على الشرق العربي في مصطلحاته ومضامينه .

وقد لاحظنا في تلك الاستنتاجات مقداراً كبيراً من الرؤيا وبُعد النظر ، لأن كثيراً من المقترحات الواردة في رسالة عارف يجري تطبيقه حالياً في البلدان المتطورة .



رد على استفتاء

كما كانت مي في بحث « المساواة » واسعة الاطّلاع ، حصيفة الرأي ، كذلك نراها في المقــال الذي كتبته رداً على استفتاء « الهلال » حول نهضة الشرق العربي[1] ، وقد راعت فيه أصول البحث العلمي من تعريف ، مقارنة ، حُكم ، مناقشة واستشهاد بالبراهين الواقعية .

تبدأ بتعريف « النهضة » فتقول انها ذات معنيين : أحدهما تجدّد الأمة في مجموع أحوالهــا ، كالنهضة الفنّية في اوروبا في القرن الخامس عشر (الرنيسانس) والنهضة العلمية والآلية او « الثورة الصناعية » في اوروبا واميركا في القرن المنصرم وفي هذا القرن العشرين .

والمعنى الثاني هو الشعور بوجوب التغيير والسعي لإحداثه ، وهذا المعنى الثاني ينطبق على نهضة الأقطار العربية .

---

(١) « بين الجزر والمد » ، منشورات مؤسسة نوفــل ١٩٧٥ ، ص ١٦٥ — ١٧٦ .

وتؤكد أن هذه النهضة ليست فوراناً وقتياً . بل انها ستستمر في سيرها بناء على استمرار الدافع الذي حركها وهو الاحتلال الأجنبي وما أدى إليه من تفاعل الشرق بحضارة الغرب وتيقظ لمعنى الحرية وسعي لمناهضة الاستعمار وتصفيته .

في جوابها عن السؤال المتعلق بامكان تضامن هذه الأقطار او اتحادها تقول ان بينها عوامل مشتركة تحثها على التضامن والتآلف ، لكنه سيظل تعاطفاً أدبياً ولو جلا عنها الغرب ، « إذ صار الناس اليوم يطمحون الى القوميات ويرغبون في الاستقلال ضمن حدود وطنية معينة ، إلا إذا جاءتنا الأيام بمباغتاتها ... وأياً كان المستقبل فاللغة العربية خير وسيلة لهذا التعاطف والتفاهم بين أبناء الشرق العربي » .

وعن السؤال : « هل ينبغي للأقطار العربية اقتباس عناصر المدنية الغربية ؟ » تجيب جواباً مطولاً خلاصته ما يأتي :

ان الحضارة الغربية حضارة عالمية ، ساهمت في تكوينها الشعوب القديمة والحديثة . فاليونان القدماء اخذوا عن المصريين والبابليين جذور حضارتهم التي اقتبس منها العرب الشيء الكثير ، ثم اضطلعوا بنقل التراث الى الاوروبيين في عصر نهضتهم . ولم تقم في عصر من العصور حضارة خلت من تأثير الحضارات السابقة أو استغنت عن الأخذ والتبادل . فمن البديهي ان يقتبس عرب اليوم ما يحتاجون الى اقتباسه من الغربيين .

ثم تقول وفي قولها ما ينطبق على كل عصر وبيئة :

« إذا انقطعنا عن حركة الحياة ، سجّلنا على نفوسنا البله ونحن أذكياء... ولا يبقى لنا سوى ركوب الأظعان في البيداء، والسكنى تحت بيوت الشعر والحداء الشجي في الليالي القمراء والرقص بالسيف والترس .

« لا أقول ان هذه العيشة البدوية غير جميلة . ان فيها لهناءً وراحة ونبلاً . ولكن ، بشّر أهلها باكتساح عاجل او آجل . لأن الحياة تتأرجح حولها ، وأصوات الآلات تهدر محلّقة فوقها وعلى مقربة منها ... لأن نظام « الحق للقوّة » نافذ في الطبيعة ، وليس هو من ابتكار المستبدّين . فإن لم يكن اهل البلاد اقوياء ، عارفين بالطرق الحديثة ، مجارين حركة العالم ، اكتسحوا واستعبدوا ، ونفذ فيهم قانون « تغلّب الأصلح »[1] .

بمثل هذه الحجج الدامغة تقنع مي القارىء بضرورة الاقتباس عن الغرب ، لكنها تقيّده بالتعمّق وعدم الاكتفاء بالسطحيات . وتربطه بالمحافظة على الجيّد الكريم من عاداتنا ، والتركيز على الضروري الذي لا بدّ منه ، كالآلات والمخترعات والأساليب المالية والاقتصادية والاجتماعية . كذلك ترى ان نظامنا السياسي يحتاج الى تحوير على مثال ما جرى في تركيا .

---

(١) هو القانون الذي أعلنه دارون في نظرية « أصل الأنواع » .

أما الآداب الغربية فيجب ان يكون اطـّلاعنـــا عليها تعرّفاً بالعالم الكبير واستيحاءً لما فيها من مظاهر عبقرية . وكما استوحى دانتي المصادر العربية وظلّ أدبه ايطالياً ، وكما استوحى كبـار شعراء الفرنسيين في القرن الســابـع عشر الآداب الاسبانية والعربية والانكليزية واليونانية واللاتينية ومع هـذا ظل أدبهم فرنسياً ، هكـذا يمكن ان نستوحي نحن آثار الغرب في خلق أنواع أدبية جديدة وأساليب حديثة ، من غير ان نفقد شخصيتنا العربية . لأن الانحصار في موضوع واحد يضيّق الفكر ويحمل على الغرور . ولا بدّ من اختلاف أنماط الأدب في اللغة الواحدة والوسط الواحد » .

ونحن لو أردنا اليوم بحث موضوع النهضة وعواملها وعلاقة الاقطار العربية فيما بينها وعملية الاقتباس وكيفية الأخذ بها ، لما استطعنا ان نأتي بأفضل ممـــا قالته مي في الموضوع منذ خمسين عاماً . فقد ضمّنت ردهـا شهادة التاريخ ونظريات العلم وخبرة الواقع وقوة البصيرة التي تحسب حساب الغد .

* * *

مـما تجب ملاحظته في نقـــد مي الاجتماعي أو الأدبي أن صاحبته ، مع حرصها على اللياقة وحسن الذوق ، تمتاز بالجرأة في إعلان رأيها ولا تخشى إغضاب من تنتقدهم وإن كانوا من أصدقائها. فهي تنتقد في كتاب « دمعة وابتسامة » لجبران لهجته المضطربة

وأفكاره الصبيانية [1] . وتلوم طـه حسين لأنه في جريـــدة « السياسة » يشغل صحيفة الأدب الاسبوعية بأبحاث ممتعة عن الشعراء الأقدمين ، ويتغــاضى عن الأدب العصري فلا ينيله كل ما هو جدير به من البحث [2] . وفي النشيد القومي المصري تقول انه « حلو كثيراً » ولكن « ينقصه شاربان » . « ينقصه قصف المدافــع ورنين الاجراس وزفير اللهب وزغودة النساء وهتــاف الثوّار وقعقعة قيود الذين سجنوا لأجل الحرية وأنين الذين قتلوا في سبيلها . ينقصه مواكب النعوش الملفوفة بالألوية الحمراء وضجيج الجماعات حولها » [3] .

كانت نفسها تثور أمام مشاهد الظلم . تتوجع لمظـاهر الجهل والتخلّف . وكأني بها من تلك الفئة التي أشار إليهــا الحديث النبوي: فئة الذين لا يرون اعوجاجاً إلا ويحاولون تقويمه بقلوبهم أو بألسنتهم، إذا عجزوا عن تقويمه بأيديهم . في «عام سعيد»[4]، المقال الذي تحمل فيه بعنف على عادة الحداد ، تقول :

« ما أكثرها عادات تقيّدنا في جميع الأحوال فتجعلنا من

---

(١) « مي وجبران » لجميل جبر ، م. س. ص ٣٨ .

(٢) « بين الجزر والمد » م. س. ص ١٤٢ (من مقال عنوانه : « لبّيك يا مسيو فانبير ! » .

(٣) « بين الجزر والمد » م. س. ص ٧٦ – ٨١ .

(٤) « سوانح فتاة » ص ٦٧ – ٧٠ .

« وتمهيداً لذلك اليوم الآتي، أحيّي الآن كل متشح بالسواد، أما السعداء فلهم من نعيمهم ما يغنيهم عن السلامات والتحيّات ... أحيّي كل حزين وكل متفرد وكل بائس وكل كئيب. أحيي كلاً منهم متمنّية له عاماً مقبلاً أقل حزناً وأوفر هناءً من العام المنصرم.

« نعم. للحزين وحده يجب أن يقال: عام سعيد! ».

لكن ميّاً رغم ثورتها العنيفة على ظلم التقاليد ورعونتها، تلزم جانب الاعتدال وتستبعد التطرّف الأهوج والتمرّد الهدّام، على نحو ما رأيناها في بحث المساواة.

في خطبة « ظل الإله الثاني »[1]، تحذّر من تفجّر البراكين التي تُدعى الاشتراكية المتطرّفة والبلشفية والفوضوية والعدمية، التي تادى أهلها بالإخاء، « وما كانوا متآخين بغير التمرد والجهل القتّال ... فيقلبون الحكومات ويقلقون الأمان ويتلفون الأنظمة ويسلبون الممتلكات، وينصفون طائفة ليظلموا طوائف. كل ذلك باسم المساواة! ».

وفي نقدها لقصة جبران، « الأجنحة المتكسرة »، تناقش رأيه في تحليل تمرّد المرأة على الرباط الذي يقيّدها بزواج لا

(١) « كلمات وإشارات » م. س. ص ١٢١.

تحبه ، لتلتقي الشاب الذي تحبه ، فتقول :

« إننا لا نتفق في موضوع الزواج يا جبران . أنا أحترم أفكارك وأجل مبادئك لأنني أعرفك صادقاً في تعزيزها ، مخلصاً في الدفاع عنها ، وكلها ترمي الى مقاصد شريفة . وأشاركك أيضاً في المبدأ الأساسي القائل بحرية المرأة . فكالرجل يجب ان تكون المرأة مطلقة الحرية في انتخاب زوجها من بين الشبان ، تابعةً في ذلك أميالها وإلهاماتها الشخصية ، لا مكيّفة حياتها في القالب الذي اختاره لها الجيران والمعارف . حتى إذا ما انتخبت شريكاً لها ، تقيّدت بواجبات تلك الشركة العمرانيـة تقيداً تاماً . أنت تسمّي هذه سلاسل ثقيلة حبكتها الأجيال . وأنا اقول إنها سلاسل ثقيلة ، نعم ، ولكن حبكتها الطبيعة التي جعلت المرأة ما هي ... لِمَ لا تستطيع المراة الاجتماع بحبيبها من غير علم من زوجها ؟ لأنها باجتماعها هذا السرّي ، مهما كان طاهراً ، تخون زوجها وتخون الاسم الذي قبلته بملء إرادتها ، وتخون الهيئة الاجتماعية التي هي عضو عامل فيها »[1] .

---

(١) « مي وجبران » م. س. من رسالة ص ٢٨ — ٣٠ .

باحثة البادية

موضوع تحرير المرأة الذي تناقشه مي في رسالتها الى جبران ينقلنا نقلاً عفوياً الى كتابها « باحثة البادية » ، وهو من بواكير أبحاثها في النقد الاجتماعي الذي يتناول قضية المرأة . وضعته في ملك حفني ناصف [١] ، الملقّبة بـ « باحثة البادية » ، صاحبة كتاب « النسائيات » ومن أبرز رائدات النهضة النسائية في ذلك الحين .

لقي كتاب مي في نقد « الباحثة » ، لدى صدوره ، إعجاباً شاملاً حتى عدّه العقاد أحبّ كتاب الى نفسه بين كتب مي ، لأنه « يمثّل أكبر جانب من تفكيرها وطبيعتها وأسلوبها » [٢]. وفي رأي فؤاد البستاني : « أحاطت الشخصية الانثوية بباحثة البادية حتى أدقّ ملاويها فكشفت عن نواحٍ منها لم يكن يسهل

---

(١) ولدت ملك حفني ناصف سنة ١٨٨٦ وتوفيت في ١٩١٨ .

(٢) « مي أديبة الشرق والعروبة » ، م. س. ، حديث للعقاد عن مي ص ١٨٥ .

كشفها إلا لامرأة مثقّفة ثقافة الرجال »[1] .

مي في هذا الكتاب تكتب باندفاع وجرأة الكاتبة التي أحبّت شخصية « الباحثة » وتفهّمت نفسيتها . تسلك في النقد طريقة عصرية تمتاز بجودة التقسيم ودقة التحليل . ومع إسرافها العاطفي في امتداح المؤلّفة ، لا تخشى مناقضة آرائها حين تجد سبيلاً للمناقضة .

تمهّد للموضوع بذكر اول زيارة قامت بها للمؤلفة ، بعد تعارف جرى بينهما بطريقة المراسلة . فتصف المكان والزمان على طريقة الرومنطيقيين :

« ذهبت إليها والشفق يضرم ناره في قلب الأفق والسحب قد انقلبت هنا لهيباً، وهناك أنواراً ، وهنالك ألواناً . ايّ نفس لا ترتعش اغتباطاً أمام جلال الغروب ؟

« على أن اغتباطي بمنظر الغروب في ذياك المساء لم يكن ليلهيني عما ينتظرني من جديد ولا ليحبس عن ذهني أسئلة تتعاقب على فكر المرء قبيل اجتماعه بشخص غريب »[2] .

---

(١) « باقات من حدائق مي » م. س. ص ١٢٨ ، نقلاً عن جريدة « المكشوف » عدد ١٤٨ .

(٢) « باحثة البادية » ، منشورات مؤسسة نوفل - بيروت ١٩٧٥ ، ص ٢٢ .

ان قسماً كبيراً من الكتاب يتركز على تحليـــل شخصية الباحثة . فالفصل الاول عنوانه : «المرأة» ، الثاني ، «المسلمة» ، « الثالث » ، « المصرية » . يليه فصول : « الكاتبة » ، « الناقدة » و « المصلحة » .

« لم أقابلهـــا مرة إلا وهي صبيحة الوجه ، طليقة المحيّا ، برّاقة العينين ، والبسمة تلعب على شفتيها . لكن هذه كلها ستائر تنسدل على حركات الحيـــاة الحقيقية ، حاجبةً عن النواظر معانيها العميقة . وهل في وسع من ذاق مرارة الفكر وحلاوته ان يكون سعيداً بالمعنى الذي يقصده البشر ؟

« ولكن لا ننقمن على الألم . فهو مغذّي الذكاء ومهـــذّب الشعور ومنبّه الإدراك الى معان جمّة وأساليب فكرية كثيرة .

« ان مزاج باحثة البادية... وجنسها النسائي وقوة عواطفها وحدّة ذكائها ، كل ذلك كان مشتركاً في تكوين طبيعتها السريعة الانفعال ، وواضعاً فيها قابلية شديدة للألم ... اقرأ كل ما كتبته تجد أنيناً متواصلاً يخترقه من اوله الى آخره . وذلك الأنين الذي يكاد ينقلب رِكزاً ، ينقلب ساعة الوجع الشديد زئيراً وعويلاً »[1] .

في وصف شخصية الباحثة ، تذكّرنا بأسلوب البـــاحث

(١) « باحثة البادية » م. س. ص ٢٧ – ٢٨ .

السيكولوجي حين تقول :

« ان في بعض الناس قوةً لا تكيّفها النعوت . ليست هي الذكاء ، وإن كان الذكاء بدونهـــا بلادة . ولا الجمال وإن عدم الجمال ميزة التأثير بفقدانهـــا . ولا هي توازن تراكيب الجسم وتناسب الاعضاء ونضارة الصحة ، وكل هذه تافهة إذا حرمَت منها ... لقد دعي ذلك العنصر مغنطيساً وكهرباء وجـاذبية ولطفاً وخفة دم وخفة روح و« نغاشة ». لكن جميع هذه المعاني ليست إلا أجزاء منه وتشترك معها في تأليفه معان أخرى، شتّى.

« انها بروق الذكاء المتألقـــة في العيون ، وسيّال اللطف المتدفـّق في الابتسام ، وأغنية الروح المتماوجة في نغمة الصوت . هي سحر الحركة وهي وسم الامتياز وهي جلال الهيبة وهي قداسة السكوت ...

« وكل من عرف باحثة البادية شخصياً أي معرفة الجسد ، أو معنوياً ، أي معرفة القلم ، علم انها كانت حائزة لهذه القوة التي حارت في تعريفها الأسماء »[1] .

« انها تضحك بسرعة وسهولة وفي صوتها رنين كرنين أصوات الاطفال . تضحك بكل قواها ، كمن يضحك من قلب لم يخالطه بعد معنى الكآبة ولم تنزل بساحته وطأة الهموم . وما أشد ما

---

(١) « باحثة البادية » م. س. ص ٣١ — ٣٢ .

يسرّ السامع بهذه الضحكة المـــلوءة طيباً وذكاء . ولولا أن خيـــالات الفكر والكآبة تتمايل على جبهتها السمراء الجميلة ، لتساءل المرء أهو في حضرة امرأة ذاقت طعوم اللوعـــة والألم ؟ » [1] .

ولأن الباحثة امرأة بكل معنى الكلمة ، فهي تجاري المرأة في تقلُّبها . فبينما تدفعها كبرياؤها الى إنكار شفقة الرجال على النساء ، ومطالبتهم بالاحترام بدلاً من الشفقة ، نراهـا في وقت آخر عائدة الى الاستعطاف والابتهال [2] .

من مظاهر أنوثتها أنها ، الى جانب قلمها الذي « كان صريره يشبه احياناً وخز حربة صغيرة غُمست في مداد إنما هو مزيج من مرارة ولهيب » ، كان لديها سلاح نسائي محض ، وهو الضحك وما يتقدمه من نظرات لطيفات المعاني وما ينتج عنه من إرضاء الجميع دون إغضاب احد والتخلص من المواقف الحرجة بمهارة وبساطة .

« في اجتماع نسائي عُقد في بيتها ، دار الحديث حول أيها أحقّ بولاء المرأة ، والدها أم زوجها ؟ واختلفت الاراء حتى دخلت الباحثة بين المتناقشات وقالت بلهجـــة جمعت بين الجد

(١) المصدر نفسه ص ٢٦ — ٢٧ .
(٢) المصدر نفسه ص ٤٢ — ٤٤ .

والمزح : « مكثتُ في دار أبي عشرين سنة ولمّا تتم لي هذه المدة عند زوجي » . فقاطعتها هنا بعض الزائرات قائلات : ما هذا؟ أتجعلين طول الإقامة ميزاناً للحب ؟

« لو قالت : « تتبع المرأة زوجها » لغضبت الامهات . ولو قالت « تتبع والدها » لسخطت الاخريات . فلم تقل هذا ولا ذاك ، بل ضحكت وسط الضوضاء والاحتجاج والاعتراض ضحكة فضية كرنين البلور على البلور ، أعقبتها بنكتة صغيرة أقفلت باب الموضوع وأرغمت الحاضرات على الاشتراك في الضحك »[1] .

في الفصل الذى عنوانه « المسلمة » ، ترينا تعلّق الباحثة بدينها الى حد إدخاله في كل أمر . فباسم الدين تنتقد الرقص الذي يبيح مخاصرة الرجال للنساء وما يتبع ذلك من تهتك وميل عن جادّة الصواب وإخلال بالشرف .

ومي تناقش الموضوع فلا ترى بأساً في مراقصة الهوانم بعضهن لبعض اذا توفّر لهن إتقان البولكا والمازوركا والفالس ، او مراقصة أزواجهن وإخوتهن. كذلك تحبّذ ميّ للنساء ممارسة التمثيل الذي تنكره الباحثة . لكنها رغم اشتراكها في الرقص المختلط لا تحبّذه كثيراً .

---

(١) المصدر نفسه ص ٤٧ — ٤٨ .

في عهد الباحثة احتدم الجدال بين أنصار السفور وأنصار الحجاب ، لا سيّما عقيب ظهور « تحرير المرأة » لقاسم أمين[1]. والباحثة في كتابها حبّذت السفور مبدئياً وطالبت به تدريجياً وبمنتهى الحذر . وأقرّته للمتعلمات فقط ولكن « ضمن حدود الاعتدال والدين » .

باسم الدين انتقدت الباحثة مدارس الراهبات لإهمالها تعليم العربية والتاريخ الإسلامي . فتدافع مي عن هذه المدارس دفاعاً يعزّزه الاختبار لأنها كانت في حداثتها تلميذة راهبات الزيارة في عينطوره . تثني على اهتمامهن بتعليم اللغات الاجنبية الضرورية للشرقيين . اما اللغة العربية والتاريخ الإسلامي والشرقي فما الذي يمنع الأهل من تدريسها لبناتهن بعد خروجهن من المدرسة ؟ وتضيف : « هل يكتفي المرء في هذا العصر بكونه حافظاً لتاريخ الشرق ، مستظهراً متون سيبويه وحواشي الصبّان ، إن لم يكن له إلمام بمعارف الغير مع إتقان لغة اجنبية واحدة على الأقل ؟ » .

ثم تدافع عن تعصّب الباحثة بقولها : « أوليس التعصب من أشدّ العواطف ملاصقة للنفس ؟ حدّثوني عن تسامح من لم يكن متعصباً لأضحك قليلاً . من هو هذا الشخص ومن أي مذنّب

---

(١) توفي قاسم امين سنة ١٩٠٨ .

مجهول في فيافي الفضاء هبط علينا ؟ »[1] .

وفي « مصرية » الباحثة تقول : « ان خفـــة الروح المصرية ترفرف على جميع سطورها . انهـا تستوقفك الوقت بعد الوقت بنكتة غير منتظرة وتهكـم شائق ينـــاسب الموضوع » . ولا يفوت ميا ان تذكر أن «جميع الاقطار العربية تعترف للمصريين بالمقام الاول في عالم الظرف » ، وان تورد امثلة حسنة من نكات الباحثة في « النسائيات » .

وتـثني على تعلقها بوطنهـــا ، وعلى حماستها في الدعوة الى المحافظة على الطابع الشرقي إزاء سيل المدنية الغربية الزاحف ، وتؤيد خوفهــا على مصر من تضييع شخصيتها وأصالتها . « ولكن » ، تقول مي : « إذا كان في الأمر المطلوب ما يكمّل من الإنسان قوى لم يبرز إلا بعضهـــا ، او أن في ذلك الأمر اقتداراً على تنبيه قوى جديــدة مجهولة ، فما تنفع الآراء ؟.. ترى هل فنيت قوة اليابان منذ احتضنت المدنيـــة الاوروبية واستخدمت مظاهرها ؟ أم تحسب اليابان من الراجحين ؟ »[2] .

من آراء الباحثة التي تعجب بها مي تصريحها بأن إقبـــال المصريين على تزوّج الأجنبيات من شركسيات واوروبيـــات

(١) المصدر نفسه ص ٥٩ — ٦٠ .

(٢) م. ن. ص ٦٦ — ٧١ .

وسواهن مضرّ بمصلحة النساء والوطن . لكنها تعترض على قولها ان الحب يكون امتن بين مصري ومصرية منــــه بين مصري وفرنسية ، او بين انجليزي وزنجية ، مثلاً ، لأن الحب في نظرها هو «العالـَم الأنور الذي تتلاشى عنده كل جنسية وكل تحزّب». وتستحسن خصوصاً دفاعهــا عن السُمرة ، عن اللون المصري الذي ينكره اولئك الذين يتزوجون الشقراوات والبيضاوات من نساء اوروبا وتركيا وهم بذلك ينكرون سحر اللون المصري وجاذبية الارض المصرية . وتشاركها في توجيه اللوم الى المصريين والمصريات، الذين يقيمون في مصر ولا يعرفونها . يجهلون الاهرام « وهي على قيد فلتة العيار من القاهرة » . والآثار تخبرنا عنهــا السائحات الاجنبيات فنبدي جهلاً مزرياً ونعجب مما يقصصن علينا. وتاريخنا مبعثر في الارض من قديم وحديث وليس من يُلمّ به غير الكتب الجامدة الخالية من الروح [١] .

في نقدها للباحثة « الكاتبة » ، تبرز شخصية ميّ الكاتبة ؛ إذ تتوسع في بسط نظرياتها في ماهية الكلمة والأسلوب . « ان الكتابة التي يراهــا الكثيرون مسألة هينة ، اكثر الفنون دقة وعسراً ... كلمات النفس حركات خفيفة لطيفة ، فكيف يتيسّر نقل هذه الخفة واللطافة بالكلمات البشرية الكثيفة ؟ » [٢] .

---

(١) المصدر نفسه ص ٧٤ .

(٢) م. ن. ص ٨٠ – ٨١ .

تجيد مي اختيـــار الأمثلة التي تبرهن عن مقدرة الباحثة وموهبتها الكتابية . تنقل فقرة من إحدى مقالاتها يجاوز طولها عشرة سطور ، حشدت فيها صوراً طريفة منوّعة اقتبستها من الطبيعة لتعزّز بها فكرتها الواحـــدة [١] . وترى ميّ في هذه « الطيرة الفكرية » دليلاً على صدق موهبتهـا الابداعية ، « لأن الفكر الذي يبقى ضيّق الحدود ما ظلّ مستقراً على الجزئيات ، ينفتح منه الجنـاح بانطلاقه الى الكليّات ، فيستنسر محلّقاً في آفاق بعيدة ، ويتّسع منه الكيان ممتداً في تمدّد الكون الذي هو جزء منه » [٢] .

كذلك في الفصل الذي موضوعه «الناقدة» تعرّف مي النقد بقولها انه ملكة فطرية يثقّفها الاطلاع والملاحظة والاختبار . وترى ان الباحثة ناقدة بفطرتها . « لو نفينا عنها كل صفة كتابية وجرّدناها من جميع نعوت الإنشاء ، لظلت ناقدة في كل كلمـــة خطّها يراعها . لكن موهبتها النقدية تثقّفت بالدرس والاطّلاع على مناطق البيئة المصرية مما لم يكن ميسوراً لسواها » [٣] .

في هذا الفصل تورد موضوع تفضيل الصبي على البنت الذي تهاجمه الباحثة وتتألم منه . وتقول مي انه لا يقتصر على الشرقيين

---

(١) المصدر نفسه ص ٨٢ .

(٢) م. ن. ص ٨٤ .

(٣) م. ن. ص ٩٣- ٩٤ .

بل يشاركهم فيه الغربيون . ثم تحاول تعليل هذا الموقف .

وتشارك الباحثة ألمها من ظلم الوالدين للبنت وتقييد إرادتها حتى في اختيار الثوب الذي تلبسه . وتلاحظ ميّ هنـــا أن الشعوب اللاتينية إجمالاً لا تختلف كثيراً عن الشعوب الشرقية في قَسوتها على المرأة . وهي من هذه الناحية متخلـّفة عن الشعوب الانجلوسكسونية التي قطعت في هذه الطريق شوطاً بعيداً [١] .

ثم تستعرض كلتاهما مساوىء التربية التي تضطلع بهـا الام الجاهلة والأساليب الاستبدادية التي ينهجهـا الوالدون في تزويج بناتهم ، إذ يعتبرون البنت ألعوبة لا صوت لها في الجماعـــة ، متغافلين عما تنتجه تلك الأساليب من ضروب الشقاء والانشقاق.

تقول البـاحثة : « إذا روعيت شروط الحكمـة ، فقلّ ان نرى هذا الشقاء المخيّم على البيوت المصرية ، الهـادم لمعنى الزوجية . وخير للفتى والفتاة ان يعيشا أعزبين من ان يتزوجا بثالث هو البؤس والعذاب » [٢] .

وتضع قائمة بعيوب المرأة الجـاهلة التي تهدم بجهلهـا سعادة بيتها . ثم تلتفت الى الرجل فتعدّد عيوبه كذلك . وتركـّز على

---

(١) المصدر نفسه ص ٩٧ .

(٢) م. ن. ص ١٠٢ .

موضوع « الضرّ » او التزوُّج بعدة نساء ، فترى فيه « جميع انواع المتاعب للرجل وأكبر اسباب الغم والتعاسة للمرأة » .

أما مي فتتألم لأن « العائلة التي وجدت لتكون مستودع السعادة الظاهرة تصير على قول الباحثة مستنقع الحسرات والكوارث والقنوط » .

في فصل « المُصلحة » ، تلخّص مي الاصلاحات التي طالبَتْ بها الباحثة في « نادي حزب الأمة » وفي « المؤتمر الاسلامي » . ولا ارى بأساً من إثباتها مع ان امرأة اليوم قد جاوزتها . فمنها ، عدا المطالبة بالتعليم الاولي المجاني للبنات ، وبالتعليم الثانوي غير الإجباري ، منع النساء من المشي في الجنازات ، ومن الاجتماع للندب واللطم والصراخ والتعديد بالطريقة القبيحة . ومنها اتّباع الطريقة الشرعية في الخطبة ، فلا يتزوج اثنان قبل ان يجتمعا بحضور مُحرّم[1] . مكافحة عادة التزويج القسري وعادة الضرّ الكثيرة التفشّي بين العامة خصوصاً . السماح للنساء بحضور الصلاة والوعظ في المساجد . اتّباع عادة نساء الأتراك في الاستانة في الحجاب والخروج ، أي التمهل والحذر في تقرير السفور[2] .

---

(١) أي ان يكون اجتماعه بها بحضور من لا يحلّ له نكاحها .

(٢) « باحثة البادية » م. س . ص ١١٠–١١٦ .

تطالب « الباحثة » كذلك بتعليم الطب لعدد من النساء يكفي حاجة بنات جنسهن، في وقت كان فيه الرجل يرفض ان يُري زوجته المريضة او أُمه او أُخته اطبيب يكشف عن وجهها وجسمها .

وتزيد مي على تلك المطاليب واحداً هو تعليم المرأة مبادىء القانون لتتمكن من إدارة مصالحها وتأمن خداع الرجال الموكّلين بشؤونها (١) .

* **

هنا أنتهي من عرض سريع لكتاب « باحثة البادية » . ولا يتسع المجال لعرض الفصلين الممتعين اللذين لخّصت مي فيهما كتاب « تحرير المرأة » لقاسم أمين ، من باب المقابلة بينه وبين « باحثة البادية » . ففي كتاب قاسم أمين القاضي والطبيب نظرة مستقبلية لا نجدها في « النسائيات » ، التي تعبّر مؤلفتها عن حركة إصلاحية غرضها إحياء روح الدين الحنيف في معاملة المرأة المسلمة ، بنبذ عادات وتقاليد تظلمها وتخالف روح الدين

---

(١) في اقصوصة لمي عنوانها « العم ابو حسن يستقبل » ، انفردت بنشرها مؤخراً مجلة « الحسناء » في عدد ٧٤٦ ، ١٨ شباط ١٩٧٧ ، تنتقد الكاتبة عادة اطلاق حرية الرجل في موضوع الطلاق بحيث ينساق الى تعديد زوجاته وتكثير عدد النساء البائسات والأولاد المشردين .

الذي يأمر بإنصافها . أمـا قاسم أمين القـاضي والطبيب ، فيستخدم التحقيقات الشرعية والعلمية والقانونية والسيكولوجية طمعاً في إيصال المرأة المصرية ، والشرقية ، الى المستوى الذي يحلم به المثاليون وأصحاب الرؤى الانسانية .

في « باحثة البادية » انطلقت مي في بسط ما أمكنها بسطه من آراء اجتماعية وأدبية . ادمجت في فصول الكتاب ما وسعها إدماجه من إشارات واقتباسات زادت كلامهـا غنى وتنويعاً . فالكتاب بما وضعت فيه من روحها ما زال على قدم عهده جديراً بالمطالعة ، لا سيما كنموذج لأسلوب مي النقدي .

إلا أن هذا الكتاب لا يعبّـر عن رأي مي في المرأة ، وإن وافقت على الكثير مما جاء فيه . لذلك كان دورها في النقد يكاد ينحصر في تحليل شخصية المؤلفة ومناقشة بعض الآراء الجانبية الواردة فيه .

ليس لمي في موضوع المرأة كلام كثير . وإن عدّت بثقافتها وتفرّغهـا للكتابة من رائدات النهضة النسائية . في محاضرة عنوانهـا : « المرأة والتمدّن » (١) تستعرض تاريخ المرأة الذي تقول انه « تاريخ استشهاد طويل » . تشير الى مراحل تحررها البطيء في الغرب وفي الشرق . تذكر بعض شهيرات العصور

(١) « كلمات وإشارات » م. س. ص ٢٩ .

القديمة والحديثة ، تؤكد ان القرن العشرين هو عصر المرأة لكنها لا تشير الى اصلاحات او مطاليب معيّنة .

وقد سبق القول أن مياً من نصيرات الاعتدال في هذا المجال لذلك ناقشت رأي جبران في « الأجنحة المتكسرة » حيث استهجنت خروج البطلة سلمى من بيت زوجها للقاء حبيبها خفية ، وإن كان هذا اللقاء بريئاً ، لا يسيء الى الأمانة الزوجية .

هذا الموقف المعتدل تعبّر عنه في مقال نشر اجزاء منه الكاتب سلامه موسى في ما كتبه عن مي في عدد نيسان من مجلة « الهلال » ١٩٢٤ حيث يقول [١] :

« وهاك مثلاً ما تقوله عما يجب ان تتعلمه المرأة الشرقية :

اولاً في إرضاء الرجل ولا اقصد بذلك ارضاءه من الوجهة الجنسية ، فالمرأة الشرقية ابرع نساء العالم في هذا الفن . ولكن اريد ارضاءه من الوجهة العملية والروحانية . أي يجب أن تهيء وسائل الراحة في البيت وأن ترقى بفكرها الى مستواه ليأتنس بها ولا يهجرها الى البارات والقهوات . ثم يجب ثانياً تعليمها تدبير المنزل وتربية البنين . ويجب ثالثاً ان نعلّم المرأة المتوسطة

---

(١) « باقات من حدائق مي » م. س. ص ١٩٣ - ١٩٤ .

والغنيـة كيف تكون امرأة صالون محدّثة انيسة . إني اكره المرأة المسترجلة وأعتقد ان وظيفة المرأة الحقيقية ان تكون أماً وزوجة » .

في هذه السطور تبدو لنا مي في موقفها المحـافظ من قضية المرأة . لكنها في المقارنة التي تعقدها بين الباحثة وقاسم أمين في القسم الاخير من الكتاب تعلن تأييدها للآراء الجريئة التي يتضمنها كتاب « تحرير المرأة » حيث يريدها صديقة وشريكة للرجل في افكاره ومشاعره. يريدها قادرة على استخدام معارفها في تحصيل معاشها بطريقة ترضيها وتكفل راحتهـا واستقلالها وكرامتهـا ، اذا لم تتزوج او اذا فقدت الزوج لسبب من الأسباب [1] . ويقول : « يجب أن تربـّى المرأة على ان تكون لنفسها ، لا ان تكون متاعاً لرجلٍ ربما لا يتفق لها ان تقترن به مدة حياتها . يجب ان تربـّى على ان تدخل المجتمع وهي ذات كاملة ، لا مادة يشكـّلها الرجل كيفما شاء . يجب ان تربـّى المرأة على ان تجد اسباب سعادتها وشقائها في نفسها ، لا في غيرها » .

في مقالة لمي عنوانها : « قتل النفوس » ، نراها تحمل على

---

(١) « باحثة البـادية » م. س. ص ١٥٧ وفي هؤلاء النساء تقول مي : « لقد انصفهن قاسم » .

الأهل الذين يفتحون رسائل بناتهم فتقول بلسان الفتاة الشاكية من هذا الظلم : « هذه المعاملة تعذّبني منذ شهور لأنها تنمّ عن ضعف ثقتهم بي وأنا لم أفعل قط ما يستوجب سوء الظن . وصرت أتألم كلما وردت إلي رسالة لأنها تذكّرني بأن في بيتنا قلم مراقبة »[١] .

وفي حديث لمي مع العقـــاد ، ناقشت فيه وإياه موضوع الديمقراطية ، أشارت الى حق المرأة في الانتخاب ، وكان حينذاك من الموضوعات الحرام في المجالس وفي الصحف . لكن العقاد ينكر على المرأة هذا الحق بحجة أنها بفطرتها « غير ديمقراطية » . إذا ذهبت الى صندوق الاقتراع ، تقترع للمرشّح الذي يملك سيارة ، مفضّلة إياه على المرشّح الذي يسير ماشياً على قدميـه . غير أن مياً تصر على الدفـــاع عن موقف المرأة وتقول : إذا ثبت أنها تفضّل صاحب السيارة فلا بد ان تكون لها مبرّراتهـا في هذا التفضيل[٢] .

هكذا نرى أن آراء مي في المرأة ، رغم تقدميّتهـــا ، متأرجحة ، تميل الى مراعاة مستوى البيئة التي لم تكن حينذاك

....

(٢) « مي زيادة في مذكراتها » م. س. ص ١٠٩ – ١١٢ .

(٢) « مي أديبة الشرق والعروبة » م. س. ص ١٨٨–١٨٩ .

مستعدة لقبول التطوير الجذري في هذا الموضوع ، والتي رمت « قاسم أمين بالكفر والإلحاد لأنه جنى هذا الإثم الفظيع الذي يدعى المناداة بإصلاح المرأة »[1] .

* * *

....

(١) « باحثة البادية » م. س. ص ٢١٤ من خطبـــة مي في تأبين باحثة البادية .

نقـــد ادبي

عائشة التيمورية

عائشة التيمورية شاعرة رائدة من شاعرات مصر (١٨٤٠– ١٩٠٢) تنتمي الى أسرة ارستوقراطية تتمازج فيها اصول ثلاثة: كردي تركي شركسي . نبغ منها عدد من الادباء والباحثين منهم احمد تيمور باشا وولداه : محمـــد الذي اشتهر بكتابة القصص ومات في شرخ الشباب ، ومحمود ، صاحب الابحـــاث الادبية واللغوية ، والمؤلفات القصصية العديدة .

لمعت هذه الشاعرة في عصر ظلمـة . وقد أصابت مي حين شبَّهتها بالبارق في الظلام ، لأن في نتاجهـــا الشعري والنثري ملامح شخصية يفتقدها نتاج سواها من الرائدات .

في « باحثة البادية »، ركزت مي اهتمامها على تحليل شخصية « الباحثة » : المرأة ، المسلمة ، الكاتبة ، النـاقدة ، المصلحة . أما في « عائشة التيمورية » ، فتتَّجه اتجاهاً آخر، لأن معلوماتها عن شخصية التيمورية قليلة محدودة إذا قيست بمـــا عرفته عن

صديقتها ومجايلتها ملك حفني ناصف . ولأن النزعة التقليدية المسيطرة على شعر الاولى كادت تطمس شخصيتها. لذلك وجّهت اهتمامهـا في هذه الدراسة الى العصر والبيئة اللذين ترعرعت الشاعرة في أحضانها ثم انتقلت الى تحليل آثارها الشعرية والنثرية تحليلاً فيه الكثير من الجهد والاخلاص .

يخيّل لي أن الاخـــلاص صفة مي الاولى في كتاباتها . من يقرأها يشعر أنها تحب موضوعها وتنصرف اليه بكل قواهـا . نقدها شبيه بالحديث الحميم الذي تتوخّى فيه إمتـاع القارىء مع المحافظة على اصول النقـــد وما يفرضه من تدقيق وصدق وموضوعية .

تتناول عصر التيمورية الذي يمثّل دور اليقظة والتململ في تاريخ النهضة ، فتريك من وجوه النشاط الفكري ما لا بدّ من وصفه . تستعرض ما قام به محمد علي من إصلاحات زراعية ، صناعية ، حربية وثقافية . تقف وقفة طويلة عند اسماعيل الذي بعث في مصر شرارة الفكر التي أوقدها جدّه . وبعد ان تتوسع في الكلام على قادة الفكر نظير الأفغـاني ، محمد عبده ، أديب اسحق وسواهم ، تنقل فقرة لقاسم امين كتبهـا سنة ١٨٩٤ في ردّه على الدوق داركور الذي انتقد بعنف انحطاط المجتمع المصري وتخلّف نسائه ، جاء فيها : « إن الحرية التـامة ، سواء في التفكّر أو في الكتابة ، أصبحت مباحة . وإن المصري يتمتع

الآن بكل ما وضعه الاعلان الشهم عن حقوق الانسان »[1] .

ولأنها تحدّثنا عن شاعرة ، تذكر تطوّر الشعر فتقول : « ظهر مع الشعر الفصيح ضروب من الشعر العامي كالمواليّا والزجل » وقد عالجت عائشة النوعين . « وتطوّر النثر بخروجه من معمعة السجع والجناس والاستعارة والتورية » . وكان انتشار الصحافة وذيوع العلوم الطبيعية عاملاً في هذا التطوير .

في وضع المرأة آنذاك ، تشير الى سيطرة الجهل على النساء ، حتى نساء الطبقة الموسرة ، اللواتي لم يسمح لهن بالخروج الى المدارس ، فكنّ يتلقّين العلم في منازلهن على أيدي معلمين ومعلمات خصوصيين ، كما فعلت عائشة .

في وصف بيئة الشاعرة وحياتها البيتية لم يكن في وسع مي الحصول على مصادر عربية تهتدي بها فعمدت الى مصادر أجنبية لسيّاح وكتّاب أجانب عرفوا مصر في تلك الحقبة وكتبوا مشاهداتهم . تقتبس خصوصاً من كتاب فرنسي وضعته سيدة فرنسية ، كانت الزوجة الاولى لحسين رشدي باشا ، ووقّعته باسم مستعار : « نيّة سليمة » ، عنوانه « دور الحريم والمسلمات في مصر » ، وفيه وصف شائق ، دقيق ، وبريء من التحيّز ، لحياة اولئك الارستوقراطيات المحجوبات داخل

---

(١) « حلية الطراز » ، ديوان عائشة التيمورية ، القاهرة ، دار الكتاب العربي ، ١٩٥٢ ، ص ٤٤ .

منازلهن ، بما فيها تقاليد الزيارة والضيافة والحديث التي انتقلت اليهن من الاتراك .

تتحدث مي عن هذه التقاليد بكثير من التفهم والتعاطف فتقول : « كم من نـُبل وكياسة في التحية التركية وكم تنويعهـا ميسور ! وكم هي لطيفة عادة تشييع الزائرات عند ربـَّة البيت إذ تتقدَّمهن الى الباب بدلاً من السير وراءهن ! وإني لأؤثر هذا على السير وراء الزائرات كمن تطردهن طرداً وتقتفي أثرهن لتكون على ثقة من ذهابهن والتثبت بأنها تخلـّصت لحين مـــا من ورطة وجودهن ! » .

وتتخيـَّل بشيء من التدقيق حيـــاة عائشة في تلك البيئة المُغلقة « حيث كانت أمهـا — وهي شركسية الأصل ، معتوقة والدها اسماعيل تيمور باشا — تحاول إرغامهـا على تعلـّم أشغال الإبرة والتطريز ، كما كانت عادة الفتيات آنذاك . لكن الفتـاة تبرم بهذه الأشغال ، إذ تشعر بميل فطري الى العلم لعلمهـا ورثته عن أبيها ، فتكبّ على الدرس والمطـــالعة . فما كان من الوالد العطوف إلا أن رتـّب لها استاذين أحدهما لتعليم الفارسية والثاني لتلقين العلوم العربية ، وصار يسمع ما تتلقـّـاه من الدروس كل ليلة بنفسه » .

في هذه المقدّمـــات التي تناولت فيها مي عصر الشاعرة وبيئتها وسيرتها ، يلفتنا أولاً اجتهادهـا في استنفاد المصادر على

قلّتها. ثانياً بروز شخصيتها من خلال ما تكتب، فهي لا تكتفي بسرد المعلومـــات بل تحرص على إبداء رأيها . فعادة تزوّج الجواري المعتوقات التي يستنكرها الأجانب عند الشرقيين، تجد في مي من يدافع عنها ويظهر محاسنها . ومِمّا تقوله: ان الجواري لسن دائماً من أصل وضيع . وقد يرافقهن الحظ فيتوصّلن الى أعلى المراتب ، فيحقّـقن بذلك آمال والديهن . وكان الرجل يرغب في الجارية لأنه يستطيع أن يراها ويختارها ، بخلاف بنت الاسرة التي يتزوّجها من غير ان يعرفها . وبما انها تعيش في بيته بعيدة عن أهلها ، تصبح بذلك في منأى عن سيطرتهم وتطفّلهم وتدخّلهم في شؤونها العـــائلية . هذا التدخل الذي كثيراً ما يعكّـر صفو الحياة الزوجية أو يهدمها . ولقد قالوا بحق ان آدم كان أسعد الأزواج لأنه سلم من شرّ الأحماء .

في حديثها عن ميل عائشة الى العلم وإهمالها لأشغال الإبرة ، تعارض مي الخطأ الشائع القائل ان الفتـــاة إذا أحبّت العلم والدرس ، وبرعت في فن أو معرفـــة ، ترجّلت . فترد عليه بقولها انها تعرف فتيـــات ونساء كثيرات يجمعن بين الاعمال الأدبيـة وأشغال الإبرة والتفصيل . « ثم أليس من الغريب أن الرجـل ، إذا هو برّز في الشعر أو الفن أو الفلسفة ، تأنّث بعض الشيء ، بمعنى انه يرقّ فكره وتـُصقَل عواطفه . فكيف تتحوّر العوامل الذي يتأنّث بها الرجل فتكون عنـد المرأة مدعاةً للترجّل ؟ » .

في ما أوردته مي من تفاصيل عن حياة بطلتها ، تستند بنوع خاص الى مقدمة ديوانها التركي والفارسي ، التي ترجمها لها محب الدين الخطيب المحرّر بجريدة « الأهرام » ، تصف شروع عائشة في نظم الشعر وتذكر قول والدها : « إذا لم يكن الشعر باللغات الثلاث : العربية والتركية والفارسية ، لا تكون له حلاوة » . وحين أكبّت على النظم باللغات الثلاث ، فوجئت بقيد الزواج فاضطرت الى إهمال هوايتها ولكن الى حين .

ثم تحدّثنا مي عن حياة عائشة العائلية . عن تعلّقها بابنتها الكبرى توحيدة ، التي يبدو أنها ورثت عن أمها موهبة الشعر فنظمته في سن الثانية عشرة . وفي هذه السن ، سلّمتها أمها إدارة المنزل ليتاح لها الانصراف الى شعرها وكتابتها . لكن توحيدة توفّيت وهي دون الرابعة عشرة ، في السن التي كانوا فيها يهيّئونها للزواج .

ما كان أشد لوعة الأم على ابنتها الموهوبة التي عاملتها كأخت وصديقة . فقد ندبتها سبع سنوات حتى أصابها الرمد وضعف بصرها . لكنها عادت الى الشعر والكتابة ، تجد فيهما عزاء ، وتحاول بما تكتبه من قصص ومقالات ، أن ترفّه عن المغبونين الذين لقوا من الدهر ما لقيت ، بأن تبتدع لهم أحاديث تسلّيهم عن أحزانهم ، « في غربة الوحدة التي هي أشد من غربة الديار » .

في نقدها لشعر التيمورية ، تبدأ بتعريف المَلَكة الشعرية ، ثم تذكر نشوء الشعر عند العرب وسيطرة التقليد على شعرائهم وفوضى التدوين وانعدام التنظيم والتنسيق وفقدان تأريخ القصائد ، كما هو الحال في ديوان عائشة .

تصرح بأن شعرها تقليدي في أسلوبه ومعانيه . ولكن « الأمر الذي يسبيني في شعرها ان شخصيتها تبدو من خلال المحفوظات (أي التقليد) كما يبدو الجسد في لوحة تصويرية من خلال الأنسجة الشفّافة » . فقد تخلّصت من بعض الأساليب التقليدية كالبداية بالغزل والمفاخرة بالأهل .

لكن ميّاً لا تعلّل تفرُّدها هذا . أكان بتأثير درسها للفارسية والتركية وآدابها ، أم لأنها ذات طبيعة حرة ، تأبى التقيُّد المطلق بالاساليب الموضوعة .

بعد أن تقسم شعرها الى خمسة أبواب ، تبدأ العرض والتحليل . فتشير الى الجيّد منه . الى الأبيات الموفّقة والمعاني المبتكرة نظير وصفها الردى بـ « منهل التشتيت » . وقولها في رثاء شقيقتها :

يا من أتى للقبر يقرأ طرسه مهلاً فليس كتابه بمداد
وأعد له نظراً فإن حروفه كتبت بذوب العين والأكباد
وجدت وأعدمها الزمان حياتها ما أقرب الإعدام للإيجاد !

توافق مي على قول ناقدي عائشة بأن خير أشعارها ما نظمته في رثاء توحيدة . لكنها تضيف اليه مرثيتها للشيخ إبراهيم السقّا الذي « يلوح كأنه عضو من عائلتها فتتوجّع لفقده » .

وفي تحليل مرثاتها لابنتها ، تعطينا مي مثلاً من توارد الخواطر بينها وبين الشاعر تنسن في رثاء صبيّة . ففي كلتا القصيدتين ، نسمع الفتاة المحتضرة تخاطب أُمها . تفضي إليها بمشاعرها ساعة الاحتضار وتودّعها وداعاً مؤثّراً .

هذا الأسلوب في وضع الكلام على لسان فتاة ميتة ، يبدو جديداً أو – على الأقل – غير مألوف في المراثي العربية .

بعد أن تتبسَّط مي في تحليل شعر عائشة العاطفي من رثاء جيد وغزل تقليدي، تتناول بالنقد شعرها الاخلاقي الذي ضمّنته التجارب والحكم والنصائح المألوفة عند شعراء العرب . منها النصح بالصبر والتعفـّف وحفظ اللسان والانضباط وما اشبه .

هنا يخطر لمي أن تناقش الشاعرة فتبيّن لها أن « المثاليين » من البشر الذين تحبّذ نهجهم لا ينعمون بالسعادة على الارض في حين أن الدنيا تبسم لذوي الاخلاق السيئة وتنيلهم كل ما يبتغون .

لكن عائشة تجيب في شعرها بأن السعادة لا تدوم و كذلك

الشقاء . وانها في حال دوام الشقاء تفزع الى الله وتجد في الايمان به ملجأ واطمئناناً .

وتعقد مي هنا مقالاً في العاطفة الدينية العريقة المتأصلة في قلب الانسان . وتقدّم أمثلة حسنة من شعر عائشة الديني . ولولعها بالمقارنة ، تقارن بين بعض هذا الشعر وقصيدة صوفيّة للقديسة تيريزا الاسبانية المسيحية التي عاشت قبلها بثلاثة قرون . لكني لم أجد أي شبه بين القصيدتين ، إلا ما يجمع بينهما من عاطفة دينية ذائبة .

في الفصل الاخير من الكتاب نقد موسَّع لنثر عائشة ، الذي منه قصة طويلة ، عنوانها « نتائج الاحوال » ، مليئة بالمغامرات والمفاجآت ، على نحو ما نراه في روايات المسامرة وقصص العجائز . مكتوبة بعبارة مسجوعة شبيهة بعبارات المقامات . تقول الكاتبة ان الغاية من سرد حوادثها تسلية القارىء بوصف عجائب القدر ، ومن العِبرة التي تتضمنها ، حضّه على مكارم الاخلاق .

وتُنهي مي دراستها بعرض مقالات اجتماعية لبطلتها ، نشرتها في بعض الصحف وطالبت فيها بمكافحة بعض العادات الذميمة المتعلقة بالزواج . منها عادة اقتران الرجل بامرأة غنية تمنحها ثروتها حق الاستبداد بالزوج . وفي مقالة اخرى ، تحمل على عادة التبرّج عند النساء والفتيات . فتردّ مي بأنها تريد للمرأة الاهتمام بمظهرها والعناية بزينتها ، شرط ان لا يبلغ ذلك

حد الإسراف .

أما المقالة التي تسترعي انتباه مي وتنال منها تعليقاً مطوّلاً فهي تلك التي تطالب فيها عائشة بأن تساوي المرأة الرجل في الاعمال ، فتفتح موضوعاً لم تجرؤ امرأة على فتحه في عصرها ولا يزال حتى اليوم مثار جدال ومعارضة ..

لكن ميّاً تعطي الجواب الفصل في نهاية التعليق الذي تختتم به الدراسة : « ليس هناك سوى الجواب الذي لا تحبّون سماعه ، ولكن لا حلّ عن غير طريقه . فإما ما يزيد عن المساواة من الرجل المحبّ للمرأة المحبوبة . وإما المساواة عن طريق القانون من الرجل المنصف للمرأة الغريبة » .

إن جواب مي هنا لا يقل جرأة عن اقتراح عائشة في عصرها .

وبعد ، فإن كتاب مي في عائشة التيمورية يعطينا صورة حيّة ، مفصّلة ، لعصر هذه الشاعرة وبيئتها ونفسيتها ، رغم ضآلة المصادر عنها جميعاً . يرينا فيها امرأة غير عاديّة ، نجحت في فرض شخصيتها وتأثيرها ، وتفوّقت في نوع انتاجها وكميّته وقد عاشت في بيئة مغلقة تتميّز بسحر البعد والغموض ، فلا بدع ان يستهوي ميّاً التنقيب عن مجاهلها والسعي لكشف أحوالها وخصائصها .

نقد لغوي وفني

لم يقتصر نشاط مي النقدي على الناحية الاجتماعية . بل ان ثقافتها المتعددة الجوانب هيأتها لأنواع مختلفة منه . رأيناها في « المساواة » ناقدة اجتماعية وفي « باحثة البادية » ناقدة لشخصية المرأة ولأسلوبها الكتابي فضلاً عن آرائها الاجتماعية . لها عدة مقالات في النقد الأدبي ، نشر بعضها في تضاعيف كتبها وبقي القسم الآخر متفرقاً في المجلات . منها نقد « وردة اليازجي » الشاعرة اللبنانية [1] و « عائشة تيمور » الشاعرة المصرية وقد سبق عرضه [2] . ونقد « يسوع ابن الانسان » لجبران [3] ، « مدام دو سفينييه وعصرها » ، و «بيير لوتي الراحل الباقي »[4] ،

---

(١) محاضرة نشرت في المقتطف ، ايار ١٩٢٤ .

(٢) محاضرة نشرت في أعداد المقتطف ١٩٢٣ – ١٩٢٥ ثم في كتاب على حدة . وفي « محاضرات عن ميّ » للدكتور منصور فهمي نصوص من المحاضرتين مع نقدهما .

(٣) في المقتطف ج ٧٤ سنة ١٩٢٩ .

(٤) نشرت المقالتان في « الصحائف » لمي ، عقيب نشرهما في المقتطف .

« بيرندللو ومسرحياته الوجيعة »[1] . ولها في الشعر القصصي الحماسي مقال تناقش فيه قول الشيخ كاظم الدجيلي العراقي بوجود الملاحم في الشعر العربي القديم[2] .

ثم ان حرصها على تطوير اللغة العربية دفعها الى اقتحام موضوع النقد اللغوي ، كذلك ثقافتها الفنيّة والموسيقية خوّلتها حق معالجة النقد الفني . ومن أفضل ما كتبته في الموضوع الاول مقالة تبسط فيها رأيها في المجامع اللغوية ووظيفتها ، رأيت أن ألخّصها في ما يأتي[3] .

تبدأ مي مقالتها بتوجيه اللوم الى اعضاء المجمع اللغوي في مصر على الغيبوبة التي غرقوا فيها منذ استقالة أحمد لطفي السيد الاضطرارية من عضوية المجمع . تذكر الأعلام الذين اضطلعوا بتأسيس المجمع منهم يعقوب صروف ، الأب لامنس المستشرق الكبير ، شيخ الأزهر السابق ، حفني ناصف بك وأحمد لطفي السيد . تعمد الى مناقشة رأي سبيرو بك الذي يريد من المجمع أن يطرح جانباً اللغة الفصحى بصعوبتها وتعقيدها ويأخذ بكل لفظة عامية تدور على الألسن لأنها تؤدي معنى من المعاني المطلوبة ، « فإذا اعتزم المجمع اللغوي على ذلك كان عمله نافعاً ،

---

(١) في مقتطف يناير ١٩٣٥ .

(٢) « بين الجزر والمد » م. س. ص ٩٧ — ١٠٦ .

(٣) « بين الجزر والمد » م. س. ص ٤١ — ٦٤ .

وإلا فليدع الشعب وشأنه يتصرف بلغته كما يشاء » .

تقول مي في ردّها على هذا الاقتراح ان الذين يتهمون الفصحى بالصعوبة والتعقيد مخطئون لأن في اللغات الأجنبية الحية ما هو أصعب منها . وتذكر ان تضاعف اللغة ، أو ازدواجيتها بين لغتي الكتابة والتخاطب ، أمر طبيعي تشارك فيه لغات باقي الشعوب . وتبيّن ان تعدُّد اللهجات المحكيّة واختلاطها في الأقطار العربية يحولان دون اتخاذ لهجة واحدة منها وسيلة تفاهم بين العرب . اخيراً توجز وظيفة المجمع اللغوي في تطوير وخلق المصطلحات الجديدة بقولها :

« أولاً : أن يؤلف لجنة تبحث في كتب العرب . ففيها بحر زاخر من الألفاظ والمسمّيات والمفردات الرشيقة البليغة التي نجهلها فيستخرجون منها كل ما يمكن الانتفاع به .

« ثانياً : أن يؤلف لجنة اخرى توجد لجميع المسمّيات والمعاني والأدوات الجديدة أسماء وتعبيرات سهلة ، إن لم تكن في كتب العرب ، فمن طريق النحت والاشتقاق والتعريب ، لتقرير ما يتفاهم به جميع الأقطار ، فلا يكوّن كل من كتّابهم قاموساً لذاته ومجمعاً منفرداً .

« ثالثاً : أن يؤلف لجنة ثالثة ترجع الى عمال السكة الحديدية وباعة الأقمشة والماعون وأدوات الزينة والاستصباح والطب

والهندسة والصناعة والزراعة وسائر شؤون الحياة ومرافق المعيشة التي اتسعت دائرتها بيننا. فنتعرف مصطلحات كل جماعة ومهنة، ونأخذ منهم الاسماء التي عرّبوها وتواطأوا على استعمالها. فنتناولها ونهذّب منها ما هو خليق بالتهذيب وندوّنه في القاموس الذي يتحتّم تأليفه.

« رابعاً: أن يلخّص لنا المجمع القواعد في كتاب وافٍ على اختصاره، على نحو ما يفعل الإفرنج، بحيث يضمن للمتعلم الإلمام بها، فيعالج اللغة ويكتبها كتابة صحيحة في اقرب وقت ممكن ».

ولست اعرف مقالاً أجمع من مقالها هذا للمسؤوليات الموضوعة على عاتق المجمع العربي، والتي لم ينفّذ منها حتى الآن سوى النزر اليسير.

★ ★ ★

لها في هذا الكتاب مقالات اخرى تبيّن حرصها على سلامة اللغة ورغبتها في توسيعها وتطويرها لتجاري العصر.

في مقالة عنوانها: « أجوبة الامتحان » [1] تعارض الذين يريدون إسقاط جميع الألفاظ الأجنبية الشائعة في التخاطب،

(١) « بين الجزر والمد » م. س. ص ٦٩.

فتدعو الى غربلة تلك الألفاظ وإسقاط ما يجب إسقاطه منهـا والاحتفاظ بالسائغ السهل الذي تهضمه لغتنا. لأنه «لا يمكن حبس أي لغة ضمن سياج وهمي من محتويات المعاجم ومفردات اللغات وتقارير المجـاميع العلمية .. فالمد والجزر في اللغة متعاقبـان . والاكتساب على وفق حاجاتها سنّة جارية، لا تجدي في تحويلها عربدة الساخطين» .

بهذه المناسبة، تدافع عن كلمة «آبله» التركية، المستعملة في مصر لمخاطبة المعلمة، لأنها سائغة، خفيفة، ولا نجـد كلمة عربية تفوقها مناسبة . لكنها ترفض استعمال «فاميليا» مكان «عائلة» و «طانت» بدلاً من «عمـّة» أو «خالة» . وتؤثر لفظة «ماما» على «نينة» لأن الاولى أقرب الى لفظـة «أم» و «أميمة» العربيتين .

وفي مقال عنوانه : «تكلموا لغتكم» [1] تهاجم ذوي الثقافة السطحية من المتفرنجين الذين يتخاطبون بلغة أجنبية، بحجة ان لفظ العربية صعب عليهم فتقول واصفة واحداً منهم :

«وهو من الطراز الحديث المكرّر ثلاثاً . فتح فـاه فتحة أنيقة تليق بالقرن العشرين وتكلم قائلاً : «نعم ولكن لفظ العربية صعب علينا . فهناك حروف خشنة مثل : «محاولاً إتقـان

---

(١) المصدر نفسه ص ٨٧ .

اللفظ » الـ .. عين والـ .. حـاء والـ .. خاء . يا إلهي ! كل هنا يمزّق الحلق ، فضلاً عن ثقله على السمع » .. وطفق حضرته يتكلم الفرنساوية جاعلاً الراء منها غيناً غنّاء ». ثم تظهر مي تعجّبها من أناس ولدوا في جرود لبنان أو في أنجاد سوريا أو في سهول مصر ، يجدون العربية «خشنة ، يا إلهي ، تمزّق الحلق» ويحسبون من يتكلمها في المجتمعات فلاّحاً . في حين أن مستشرقاً أجنبياً ، (الكونت دي جلارزا الاسباني) يتقن لفظها ويحسن الإفصاح بها في موضوع فلسفي عويص .

***

ولها في النقد الفنّي عدة مقالات . منها نقد النشيد القومي المصري [1] وبحث عنوانه « في عالم الألحان » [2] قارنت فيه بين الموسيقى الشرقية والموسيقى الغربية فقالت ان هذه تمتاز بكونها « علميّة » ، يحتاج فهمها وتذوّقها الى درس واطّلاع وانها تمثّل في تأليفها وتوقيعها مأساة الجهاد والكفاح بين العواطف والذكاء. أما في الشرق فكل الموسيقى عذاب وشجو وأنين . هي صوت القلب وخلاصة التعبير الوجيع . يتجسم فيها دون غيرها معنى الامتثال اليائس والصبر المرير .

وترى أن واجب المعهـد الموسيقي المصري ، الذي اوحى

....

(١) « بين الجزر والمد » م. س. ص ٧٦ .
(٢) المصدر نفسه ص ١٢٢ – ١٢٩ .

اليها بهذا المقال ، أن لا يكتفي بحفظ الموسيقى العربية ونشرها بل عليه أن يعنى كذلك بإصلاحها وحذف ما علق عليها من الشذوذ والإفراط في المرادفات والتطويل في الآهات وأن يبث فيها نسمة الانعاش .

والإنعاش يأتي الى موسيقانا من استيحاء الموسيقى الغربية التي بينها وبين الاولى قرابة . موسيقى الرومنطيقيين الزاخرة بالحنين . كذلك ، بتلك القرابة العاطفية ، نستوحي الموسيقى التركية والفارسية والأرمنية واليونانية الحديثة والبلقانية ، وبنوع خاص الهنغارية والروسية . ولكن يجب أن نعرف ان التطوير والتجديد لا يكونان بالنقل بل بالاستيحاء الذي يفتح أمام الدارس كنوزاً وراء المادة التي يدرسها . ويطلّ منها على آفاق لم تخطر له في بال .

في مقال آخر عنوانه « معرض الصور المصري »(١) ، تظهر مي في نقد التصوير حذقاً لا يقل عن مقدرتها في نقد الموسيقى .

تقسم مقالها هذا الى أربعة أقسام : الاول يمهّد للثلاثة الباقية ، وفيه وصف موجز وترحيب حار بأول معرض صور أو لوحات يقام في مصر عام ١٩١٩ :

(١) « بين الجزر والمد » م. س. ص ١٣٠ – ١٤١ .

« لقد أضيف الى الأحاديث المزعجة التي ملأت اندية القاهرة في هذه الأيام موضوع لطيف لم تألفه اجتماعاتنا بعد، هو موضوع الفنون الجميلة » .

ثم تصف محتويات المعرض وصفاً عاماً وتنتقد اقتصارها على نتاج الهواة من الأجانب والأقباط . وتأسف لأن اكثر الرسوم منسوخة عن رسوم موضوعة ، فليس فيها ما ينقل الطبيعة مباشرة او يعبّر عن فكرة شخصية ، لكنها تغتبط لأن نصف المعروضات تقريباً من صنع السيدات والأوانس .

القسم الثاني من المقال وضعته سنة ١٩٢٤ . تنقد فيه المعرض المصري السادس للفنون الجميلة . فتبتهج لأنه أصبح ذا صبغة مصرية ولأن طائفة كبيرة من معروضاته من صنع المصريين . وتلوم اللجنة المنظّمة التي عرضت اربع مئة لوحة وكان خيراً لو اكتفت بمئة مختارة .

وتصنّف المعروضات الرديئة . منها ما يُحتمل احتمالاً . ومنها السطحي الباهت كأنه نُقش بماء الورد . ومنها ما لا يُقبل إلا كأثر رُسم في الطفولة ، « يوم بدأنا ننسخ طاقات الورد والأواني الزرقاء والصفراء من دفتر كاترينا كلاين الالمانية » .

ثم تمتدح في القطع الجيدة « فن التلوين ، وجرأة الخطوط ، وإحكام الرسم ، وجلاء الاسلوب مع حِذق التعبير عن خاطرة

جلية او تأثر غير مرتبك » . وترى ان العيوب تغتفر في لوحة ناطقة بمزاج فني واضح الحدود . وتقصد بالعيوب « ارتبـــاك التأليف وعدم مراعاة التوازن في توزيع الألوان والأبعـــاد ، وكأنها كانت مفتقرة الى توحيد الاسلوب على منهج واحــــد . ولكن فيها مجهوداً جميلاً واقتحاماً جديداً وسعياً لشقّ سبيل غير مألوف » .

في القسم الثالث ، تتوسع في النقد وفي بسط العيوب التي يتعرض لها الفن حين يكون أصحابه في طور الحداثة .

وتذكر محاسن هذا التطور المفعم بالأمل والمغامرة ، الخالي من مرارة التجربة ومعاناة اليأس والفشل .

لكن سيئاته هي عدم التمييز بين أصحاب المواهب الأصيلة والمتطفلين الأدعياء .

« ان الرسم والتصوير والنحت ، كالشعر والموسيقى ، لا خير فيها إلا إذا عبَّرت عن مزاج تام ، وكانت على جانب من الإتقان . في حين ان لهفة من صوت ولو غير جميل ، تعني شيئاً ما وتدل على خاصة حيوية . وحسبها انهـــا تنبع من التنفس الذي هو اصل الحيـــاة ... أما التصوير والرسم والنحت والشعر والكتابة الادبية فلا بد ان يتساوى فيها حظا الصنعة والفن ، اي كيفية التعبير وكمية من شخصية يتسنى التعبير عنهـــا ... وليس من

الضروري أن يتكاثر العدد كل سنة ولكن من المحتم ان يرتقي الفنانون وتصقل مواهبهم وتجود آثارهم » .

في القسم الاخير تقول ان من مزايا هذا المعرض انه يخلق جواً للفن ، ويبث في الجمهور رغبة في درسه وينشّط معالجي الفن وهواته . وانه موضوع يمرّن عليه كتّابنا مقدرتهم في النقد التصويري . وتضيف الى ذلك حديثاً نقلته عن بودلير في فضائل النقد وصفات الناقد ومزايا النقد الفني . وتختم بقولها :

« كان من دواعي الابتهاج أن تبدو مع النزعة الجديدة الى الحرية السياسية ، النزعة الى العمل الفني ، يحاذيها النقد الصادق الذكي . هو ثالوث سعيد ، بورك فيه » .

في هذا المقال ، تستوقفنا أقوال مي حول طبيعة الفن : « تعبير عن مزاج » أو موهبة . وحول اصوله: يجب ان تتساوى فيه الصنعة والفن او الأخذ والابتكار . وأهميته الحضارية : « لا شيء أقدر من الفن على تصفية النفس وترقية الميول » .

ونلاحظ أنها فيه ، كما في مقالها عن الموسيقى ، تُعد رائدة، تعالج موضوعاً جديداً وتأتي بمصطلحات جديدة . لأن نقد الفنون الجميلة لا يزال عندنا حتى اليوم في طور الحداثة .

أما الغرض الأكبر من مقالها فهو تشجيع إقامة المعارض

كشرط أساسي لتعزيز النهضة الفنّية . وهو غِيرتها على النهضة العربية بجميع مظاهرها، في التصوير او في الموسيقى او سواهما. وهذه الغِيرة هي التي تحرّك ميّاً في كل ما تكتب .





محاولات قصصية ومسرحية

كان لمي من شاعرية الاسلوب ، ومن المقدرة التحليلية التي نلمسها في كتابها « باحثة البادية » ، وفي الكثير من مقالاتها النقدية [1] ما يهيّئها لكتابة القصة والمسرحية . لكنها لم تمارس أيّاً من هذين الفنّين إلا في السنوات الاخيرة من عهدها الكتابي. فقد كتبت « المجرم القديم »، حكاية تاريخية مقتبسة من الالمانية، سنة ١٩٢٨ ، ومسرحية « على الصدر الشفيق » في ١٩٣٢ ، وأقاصيصها الثلاث : « الشمعة تحترق » ، « الحب في المدرسة » و « السرّ الموزّع » ، بين ١٩٣٣ و ١٩٣٥ .

في ذيل كتاب « المساواة » الذي نشر عام ١٩٢٤ ، محاورة جعلت عنوانها « يتناقشون » ، استخدمتها للتعليق على ما ورد في الكتاب ، ولكن بأسلوب حواري يرفّه عن القارىء بما فيه

---

(١) راجع مثلاً تحليلها لمسرحيات الكاتب المسرحي الايطالي بيرندللو في « باقات من حدائق مي » م. س. ص ٦٦٤ ، ولمدام دوسفينييه وعصرها، وبيير لوتي وميجيل دي أونا مونو (المصدر نفسه ٥٧٨ – ٥٩٩) وقد نشرت بعض هذه المقالات في « الصحائف » .

من تنويع وتعارُض ، ونتبيَّن ملامح الفن المسرحي في عناية الكاتبة بتحليل أشخاص المحاورة والمقارنة بين وجهات نظر مختلفة .

أبطال المحاورة هم « مي » سَميَّة الكاتبة وصاحبة كتاب « المساواة » الذي كان ظهوره سبباً في إثارة المناقشة . السيدة جليلة ، « المعلمة الفطنة المعتدلة الرأي » ، التي لا تشترك في الجدال إلا نادراً ويكاد يقتصر دورها على الإصغاء . ابنها عوني ، الشاب المتحمِّس المفتون بالاشتراكية ، المؤمن بأن فيها خلاص البشرية . الاستاذ سامي العالم الفيلسوف المتشائم الذي يرى في البحث عن السعادة ضلال الانسانية الأكبر . سعيد بك الوجيه المتبجِّح برئاسته لإحدى الجمعيات الخيرية . زكي افندي المتأدِّب الذي ينحصر دوره في الموافقة على كل ما يقال والتصفيق لكل خطاب . عارف « الاديب الذي عرف الناس وتألم فأدَّت به المعرفة الى شيء من الجمود لكنه يخفي وراء ذلك طبيعة حارَّة صادقة خيِّرة » .

في هذه المجموعة الجادَّة ، تُقحم مي فتاتين عصريتين : بلانش وأنطوانيت ، لا تتكلمان سوى الفرنسية ولا تفهمان من الحوار الفلسفي الدائر حولهما إلا كلمة « حب » الواردة عرَضاً في كلام السيد عارف . ينحصر تعليقهما على المناقشة بالتثاؤب ، وبذكر ما أوحته اليهما في موضوع الزواج والفساتين .

فأنطوانيت تعلّق على تحمُّس عوني للاشتراكية بقولها ، حين سألتها رفيقتها رأيها فيه :

ــ عوني ؟ هذا الذي يريد أن يوزّع ما عند الواحد على جميع الناس ؟ تأملي حالي اذا هجم يوماً على ثيابي وحلاي ليفرّقها على نساء لم يتعبن في ابتياعها ! تأملي حالي اذا تبرّع بثوبي الأزرق ، ثوب الرقص ! لا لا . هذا لا اريده !

ان ميّاً تستغل في هذه المحاورة استغلالاً ممتعاً، مبدأ التضاد او التعارض بين الأشخاص ، وهو ركن من أركان الجمال . لكنها في الآن نفسه تدمج فيها انتقاداً اجتماعياً لاذعاً في شكل يقرب الى الكاريكاتور .

« على الصدر الشفيق » مسرحية ذات أربعة مشاهد . تبنيها مي على التحليل النفساني الذي أخذ يذيع في ذلك الحين ويلفت أنظار الناس الى العلاقة الوثيقة بين الجسم والنفس في إحداث الأمراض .

أبطالها ثلاثة : الدكتور راجي طبيب وعالم يجمع بين الجِد والرقّة ، وتلميذاه ، أحمد صبحي وزكي ، شابان مختلفان اختلافاً كلياً في طباعها . الاول كثير الافتتان بموضوع الامراض الخُلقية والاعراض النفسية التي ليست في رأيه ، او رأي بعض العلماء ، إلا نتيجة خلل في الأعصاب أي في الجسم . وهو شديد التعلق

بأمه ، يقف أمامها كطفل مستعد لتنفيذ جميع رغباتها . أما زكي فشاب مبتلى بداء الشك وسوء الظن ، يسخر من المثاليين الذين يجعلون من الأم مخلوقاً ملائكياً ويزعمون أن قلبها معدن الحب والعذوبة والتضحية التي لا تطلب أجراً . وإذ يستفسر الدكتور راجي عن سبب هـذا التشاؤم ، يروي له زكي قصة واقعية عن فتاة انتحرت لخلاف بينها وبين أُمها التي لم تكن لها إلا عدوة تغتبط بتعذيبها وتتمنّى موتها . ثم يخبر استاذه أن أُمه من صنف تلك الأم فهي لا تعرف الحنو ولا تشعر بوجود ابنها ، بل ربما فضّلت كلبها عليه . وهو لأجلها أصبح يكره جنس النساء ويقشعرُّ بدنه من فكرة الزواج خوفاً من أن يأتي الى الوجود بأولاد يتعذّبون كما يتعذّب .

أمام هذا الاعتراف المؤلم تتحرك في الطبيب عاطفته الإنسانية ، وينبري لنجدة تلميذه : يحدّثه عن أُمه الفقيدة التي لم ير منها في حياتها إلا الحب والعطاء . وما زالت له بعد وفاتها مصدر خير وعزاء . إذا ساورته الهموم لجأ الى ضريحها ، يناجيها ويستمدُّ منها وحياً وأملاً . وهكذا ، بما يبديه الدكتور نحو تلميذه من ضروب التعاطف والرفق ، وبما يقدّمه من خبرة واقعية ، يستدرجه بطريقة الايحاء (Suggestion) الى التسليم برأيه والخضوع لتأثيره . يُقنعه بالذهاب معه لزيارة ضريح أُمه ، التي يأمل من زكي أن يتخذها أُمّاً ، ويجد في ذكرها وحبّها ما يجده هو من قوة وتعزية .

ـ «إني أقاسمك بكل إخلاص هذا القبر الذي يضم خلاصة ما أحب في العالم . هذه المرأة الميتة أمك كما هي أمي . ستحبُّك بمثل حبّها لي وتوحي إليك بالنبل والصلاح والاستقامة » .

حينئذ يجثو الشاب عند الضريح فيقبّل حجارته وينادي الأم الراقدة فيه باكياً ، خاشعاً ، مستغفراً . وينهض ليرافق الدكتور الى حيث يشتري نباتات معرّشة ورياحين يظلّل بها قبر المرأة التي صارت أمه كما هي أم أستاذه .

في هذه المسرحية تستغلُّ ميّ نظريات سيكولوجية عن حاجة الانسان الى قلب يحنو عليه لتدحض بها نظريات أخرى تعارضها . وتعبّر عن تفهُّمها للنفس البشرية في أحوالها المتناقضة وشذوذها .

صبحي وزكي شابّان في ريّق العمر ، في سن الحماس الأهوج والاندفاع المتهوّر . الأول يخضع لأمه خضوعاً شبيهاً بالعبودية والثاني يكرهها لأنانيتها . والدكتور الذي حنّكته التجربة ، يقف بينهما موقف الفاحص الخبير والمرشد الحكيم ، محاولاً تعديل هوسها وشذوذهما . إنه يشبه الاستاذ عارف في محاورة « يتناقشون » او يمثّل ميّاً نفسها في اعتدال رأيها واتّزان موقفها . ينتقد انجراف صبحي وراء النظريات والأبحاث السيكولوجية التي لا تزال مبهمة او « أسراراً في أسرار » . ويهدّىء من غضب زكي ونقمته ، ويلومه لأنه لا يرى في

الأمّهات جميعا إلا مخلوقات أنانيات نظير أمه التي ربما أراه الخيال المحموم عيوبها مضخّمة .

قد يكون في نهاية المسرحية ، وفي ارتداد زكي ، مقدار من التخيّل واللاواقعية . لكن الاشخاص يمثلون في مواقفهم نماذج واقعية . أما من الناحية الفنيّة ، فالمسرحية ذات موضوع طريف وعقدتها تنتهي بحلّ مريح . في مشاهدها حركة وتنويع ، والمنظر الأخير ، رغم انه يجري في مدفن ، يستمدّ من جلال الصمت وطرافة الحلّ ما يوحي بالراحة والانفراج اللذين نجدهما في ختام المأساة اليونانية .

***

أقاصيص مي تعتمد كذلك على الاسلوب التحليلي الذي يميّز محاولاتها المسرحية .

« الحب في المدرسة » يعرض نفسية طفلة تتبرعم عندها عاطفة الحب وتتركّز في تعلّقها الشديد بفتاة أكبر منها سنّاً ، تبلغ السابعة عشرة وتدعى ألفيرا . هي « الأم » التي وكلت إليها الراهبات العناية بالفتيات الصغيرات في المدرسة . لكن شجيّة ، وهو اسم الفتاة الصغيرة ، تغار من ابن عم ألفيرا ، طالب الطب الذي يزورها ويكتب إليها الرسائل ، وترى فيه الشيطان الذي يعذّبها . وحين تأتي ألفيرا لتودّعها قبل ذهابها

الى البيت لتعود والدها المريض ، تمتنع شجيّة عن تقبيلها بحجّة أنها تخشى إغضاب الراهبة التي تراقبها بعين جامدة .

لكن ، بعد ذهاب ألفيرا ، تكتب إليها رسالة تشير فيها الى سبب غضبها وامتناعها عن تقبيلها، وتختم الرسالة بقولها مهدّدة: « لا يمكن ان تحبّي الاثنين معا ، فإما أنا وإما هو ! » وتخرج من المدرسة حين أخذ الظـــلام يرخي سدوله ، حاملة الرسالة لايداعها صندوق البريد . لكن الصندوق كان عالياً لا يمكنها الوصول اليه ! وإذا بها ترى شاباً مقبلاً نحوها فتتقدم منه قائلة :

– أرجوك يا سيدي أن تضع هذا الخطـاب في هـذا الصندوق .

– بكل سرور ! بونسوار مدموازيل شجيّة !

«ويلاه! هذا طالب الطب بعينه! هذا شيطان الشياطين!» .

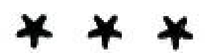
وعادت الى مدرستها مهرولة لا تلوي على شيء ...

في هذه الاقصوصة المرحـــة ، تصوير مؤثّر لنفسية البطلة شجيّـة ، الطفلة ذات السنوات العشر ، تضفي عليه مي سحراً من جمال الوصف والحوار . تنهي حكايتها بنكتة طريفة . ونرى أسلوبها شبيهاً بأسلوب المذكّرات النابض بالحيوية. ولقد كان في وسع مي أن تعطيها عنواناً أطرف من « الحب في المدرسة » . مثلا : « غيرة » او « هموم طفلة » او « نفوس عـذبة » . أعني

نفوس أبطالها الثلاثة : شجيّة وألفيرا وابن عمّها « شيطان الشياطين » .

« الشمعة تحترق » قصة عاطفية تعتمد كالسابقة على اختبارات الحداثة وذكريات الدير . إنها قصة الراهبة الفتيّة التي أحست بميل خفي يشدّها الى الضابط الشاب الجريح الذي وكل إليها أمر العناية به في المستشفى . وقد بدرت منه إشارات تدل على امتنان نحوها يمازجه إعجاب وحب صريح . تنظر الراهبة الى يدها التي لامستها يده بقوة وشغف حين قدّمت له فنجان حليب ، فيخيل إليها أنها تحمل من يده شرارة نار . وحين تركع للصلاة في الكنيسة ، تستغفر الله خاشعة على الاثم الذي ارتكبته ، لأنها أحست رعشة السرور بملامسة يده ليدها ، وبحلاوة لم تجد مثلها في حب الله وعبادته . تصلّي بحرارة الى الله أن يشمل بعنايته الضابط وخطيبته التي ذهب لمقابلتها . وترفض الذهاب اليه حين طلب أن يراها ليشكرها ويلقي عليها كلمة الوداع ...

ان ميا في هذه الأقصوصة تعبّر عن تعاطفها مع الراهبة التي عاشرت زميلات لها في مدرسة الدير . ولعلها تُكبِر كفاحها الشاق ، ومجاهدتها الصوفية لبلوغ المثل الأعلى الذي نذرت له نفسها .



« السر الموزع » أقصوصة ترتكز على التعارُض او المقارنة بين فتاة متوثّبة الخيـال ، قليلة الخبرة بأحوال الناس وأسرار القلوب ، وشاب موزع القلب ، لا يدرك من الحب إلا متعـة التنقـُّل من فتاة الى اخرى . هو الدون جوان ، كما عرفه فاروق سعد في « باقات من حدائق مي » [١] والفتاة تختبر الحب لأول مرة من نظرة يرسلها إليها هذا الشاب الخبير بإغواء النساء .

تجيد مي وصف حال الفتاة التي نفذ الحب الى قلبها في لحظة نظر كانت طويلة ، مليئة كالدهور . « الوجود كله يتلخص في ذلك النظر وفي السر الذي يحتويه . على صفحة الماء المائجة نظر مليء بالسر . في الفضاء حولها نظر مليء بالسر . في الابعـاد المترامية ، في ألوان الشفق ، في هبوب النسيم ، وبخاصة في صميم كيانها نظر مليء بالسر ، يهمس : أردتُ أن أنبّهك ... أله مثل هذا النظر مع جميع النساء؟...دنت من مرآتها فرسمت لها المرآة وجهه لا وجهها ، وأقبل النظر يتسرب إليهـا مع سره ... في تلك الدقيقة كان الفتى بين أصحابه عند « جروبي » وقد رفع كأس الوسكي الى شفتيه ناظراً بعينين ناعستين الى الغادة الجالسة أمامه في ثوب عاجي وقائلاً ببطء : أشرب سرّك » .

كانت هذه آخر أقصوصة كتبتها مي ونشرتها في « الرسالة » في مارس ١٩٣٥ . ونلاحظ فيها تطوراً محموداً عن سابقتها من

(١) ص ٢٩٥ م. س.

حيث الفن القصصي . فيها تركيز وتعارُض وتحليل دقيق لنفسية الفتاة ومقدار من الإبهام والإيحاء الذي يثير التساؤل حول معنى كلمة « السر » المردّدة . ماذا تعني للفتــاة ؟ وماذا تعني للفتى الذي يقول : « أشرب سرّك » . وقد بدأتها بداية دراميةً ، بوصف الشاب الخارج من الحفلة ، يبحث عن الفتاة التي استطاع نظره أن يأسر فؤادها . وإذا به يلتقي صديقاً له يحول بينه وبين لقائها . وتنتقل مي الى الفتيات الخمس اللواتي كانت طريدة الفتى الأنيق ، صاحبة « الثوب ذي الزرقة الكهربائية » واحــدةً منهن ، وقد حملتهن السيارة الى منازلهن واحدة بعد اخرى . أما صاحبة الثوب الأزرق فكانت غارقة في أحلامها ، شاردة النظر عما يجري حولها ، وبطريقة الاسترجاع ، (الفلاشباك) ، تتصور الظرف الذي أدّى الى لقاء نظرها بنظره وتبني على هذا اللقاء قصوراً وعلالي ، في حين كان الفتى مشغولاً عنها بأخرى .

في أسلوب مي القصصي نَفَس شعري ورشاقة تعبير يأتلفان مع موضوعاتها العاطفية والبيئات المثقفة التي تجري فيها حوادث القصص . والذي ينعم النظر في محــاولات مي المسرحية والقصصية لا يسعه إلا أن يبدي أسفه لأن مياً لم تمــارس هذا اللون الأدبي إلا في السنوات الأخيرة من حياتها الأدبية .

خواطرها الحميمة

إن الاتجاه التأملي – وأعني به النظرة العميقة الى الأشياء ، والتساؤل عن معانيها وأسرارها ، ومحاولة النفوذ الى ما وراء الظاهر ، أو مجاوزة الواقع والمألوف – يبدو واضحاً في كتابات مي الاولى ، في مذكـّراتها وأشعارها . ولعلهـا ورثته عن الرومنطيقيين الذين أدمنت مطـالعتهم في مدرسة الدير . في هذه المحاولات ، لا تكتفي مي بوصف مفاتن الطبيعة ، بل تصف كذلك انعكاساتها في نفسها ، وتلقي عليها ظلالاً من عواطفهـا وتصوُّراتها . في الغابات تسمع همس الآلهة مرنـِّمة بجـانب الينبوع ، وحفيف أجنحة الارواح مرفرفة حولهـا . تتخيـَّل الأمطار عبرات يسكبها سكان الكواكب المتلألئة في الرقيع ، وأشجار السنديان الشامخة تبتسم حانية على الأزهـار الصغيرة البرِّية فتسمح لها بالنمو في ظلالها .

إذا نظرت الى الجبال ، جسـّدت فيها ذاتها فبدت لها حالمة مثلها ، « تحلم بالزرقة البعيدة ، وبأعماق الأنوار الغامضة ، وبخفايا القبور المبهمة » .

وإذا نظرت الى أوراق الخريف المتهاوية ، خيّل لها أنها سئمت أسر الالتصاق بالشجرة التي أنالتها الحياة ، وحرّكها الشوق الى الحرية والانعتاق ، فأخذت تترنّح في الهواء مغتبطة بحريتها . ولكن سرعان ما هبطت الى الارض حيث داستها الأقدام وحيث ينتظرها التحلّل والاضمحلال ، فكانت الخيبة جزاء سعيها والموت ثمن حرّيتها .

هذا الاتجاه التأملي هو الذي حدا بها الى بحث موضوع « المساواة » في كتاب . وفي خطبة « الإخاء » ، الى المقارنة بين أهرام مصر التي بنيت بدموع العبيد البائسين ، وصروح البرّ والإحسان التي ارتفعت لإيواء المشرّدين واحتضان اليتامى والمحرومين . وهذا الاتّجاه عينه هو الذي يسيطر على مجموعتها الفريدة : « ظلمات وأشعة » حيث تطلق العنان لخواطرها الميتافيزيقية ، وتجاذبها موضوعات فلسفية عصيّة ، كالزمن والألم والسعادة والظلم والحرية والموت والشوق الى المجهول .

« ظلمات وأشعة » يضم مقالات ذات نفَس شعري ، خطابي أو قصصي ، تتخذ أحياناً شكل المناجاة . تقسمه الى ثلاثة أقسام ، تصدّرها بمقدمات ثلاث متسلسلة ، عنوان الاولى : « من كوّة الحياة » ، الثانية : « نحو مرقص الحياة » ، والثالثة : « في مرقص الحياة » . وتشرح هذه العناوين في فقرات قصيرة تقول في الاولى انها وقفت عند كوّة الحياة حائرة ، لا تدري لماذا

تقف ، ومن ذا الذي أوقفها هنـــاك . وحين عذبتها الحيرة ، وظنت أنها بلغت قرارة اليأس ، أوحي إليها بأن هناك وجوداً غير ملموس يسمّى « السعادة » فشعرت باحتيـــاج عميق الى التعرّف إليها والتمتع بها ، وفهمت انه لا شيء أقسى على النفوس في انفرادها وسكوتها وعجزها ، من تلقّي ذلك الوحي العنيف وشعورها بذلك الاحتياج العميق .

في المقدمة الثانية ، نراها تُغذُّ السير ، يحرّكها ذلك الشوق الجامح الى السعادة . تندمج في خضم البشرية وتشاطرها سعيها الدائب نحو المرقص الكبير . فيتناولها حيناً دوار الاختلاط ، إلا أن الشخصية العامة لا تستولي عليها ولا تغرق في دوّامتها شخصيتها . وتفهم حينذاك انه « حيث تكون العاطفة مرهفة فهناك النزاع الأليم والاستشهاد . وإذا رافقتهـا الأنفة وشرف السكوت على مضض الحروق ، فهنـاك مأساة الصلْب تتجدد مع الأيام » .

رغم هذه التجربة المؤلمة ، نراها في المقدمـة الثالثة ، « في مرقص الحياة » ، تواصل انجرافها في التيار المكتسح اللاينثني . تتغلغل شيئاً فشيئاً في الميدان الذي تقيم فيه الحياة مرقصها . فيتراءى لها أن هناك خليطاً من صراخ الصرعى وعويل الهلكى ، من تهليل الفرحين وابتهال الأتقياء والمصلّين . من زفير الحفيظة والشماتة وحمد القناعة والشكر . فترهف سمعها وتصغي الى

ألوف الأصوات التي يتألف منها نشيد الحياة الرائع . . .

لكن الاختبار والمعاناة لا يزيدانها إلا اعتقاداً بأن الحياة ما هي إلا سجن كبير ، والشوق الى السعادة وهمٌ لا يؤدي الى حقيقة . فعند كل خطوة خيبة وكمد ، وعند كل خطوة أمل وجذل واستفهام لا جواب له .

إذا نحن راجعنا المقالات المدرجة تحت كل قسم من الأقسام الثلاثة ، قد يبدو لنا أنها لا ترتبط بالفكرة الاساسية التي تعلنها المقدمات ، لأن موضوعاتها متنوعة ، متفرقة . لكن النظرة العميقة تبيّن أن أكثرها يحمل في تضاعيفه سؤالاً عن معنى الحياة وغايتها ويعبر عن رغبة حارّة في الغوص الى جوهر الأشياء وبواطنها .

في المقالة الاولى ، «أنا والطفل» ، يسوقها الحديث مع البطل الصغير الى التأمل في مستقبله وما ينتظره من متاعب ومشاق . في مناجاة « نهر الصفا » يلحُّ عليها السؤال عن مصدر الحيـاة ومصيرها : « من أين وإلى أين ؟ » ، ويعاودها السؤال عينه في « دمعة على المفرّد الصامت » ، وفي المقال الاخير : « عند قدمي أبي الهول » .

« الساعة المفقودة » توحي إليها بأفكار فلسفية ، كونية . والخلية الصغيرة تصبح عندها صورة مصغّرة للكون . مساحتها

رمز للفضاء . دورتها مسرح اللانهاية . علاماتهـا مقاطع الوقت الذي رتّبه الإنسـان . دقائقها خوف من هجوم الرزايا وترقّب لوفود الآمال . ثوانيها دقـّات القلب ، ومن الثواني يتألف الزمان ومن نبضات القلب تُنسج الحياة .

في مناجاتها للباخرة « لوزيتانيا » تتساءل عن مصيرها في قعر البحار . وتسألها : أصحيح أنك مندحرة يا قاهرة العناصر؟ وأن الامواج التي طالمـــا أخضعتِيها قد ابتلعتك وساقتك الى هوة العدم ؟

وفي مقال « العيون » تحاول اكتناه أسرار العيون . وكأنها تتبنّى موقف الرومنطيقيين الذين رأوا فيها منفذ النفس البشرية ومجتمع قواها وسحرها حتى زعم أحد شعرائهم: سوللي برودوم، أن العيون لا تموت .

« أيكون الظلم من شيم النفوس ؟ » هذا السؤال تثيره حكاية « الحكيم وطالب الحكمة » ، كما أنهـا تثير سؤالاً آخر : هل أن معاناة الشقاء ضريبة يتحمّلها ذوو النفوس الكبيرة ؟

كذلك في « ليلة عيد النصر » حيث يموج على الآفاق لألاء الأعياد وتتدافع الجماهير منتشية بحمى الطرب ، تُبدي الكاتبة ألمها من أن ترى الحزن يتجاور مع الفرح ، وتتعالى وسط الهتاف المنسجم نغمة شاذّة . هي صورة امرأة عجوز تتوسّل وتنتحب

أمام الذين يطردونها من غرفتها الصغيرة القائمة في طرف السطح، لأنها منذ خمسة شهور لم تؤدِّ بدل الإيجار .

يستوقفنا مقال « السهرات الراقصات » بما فيه من ظرف ودعابة ، تنطوي فيها سخريتها من زيف المجتمع ومن تفاهة الحفلات الراقصة : « رقصتُ مع كل راقص ذي كياسة . واحتسيتُ الكوثر من كؤوس عسجدية . وبسمَت شفتاي لكل عين لامعة . ولما طاف طائف الكرى بين أجفاني عدت مستوفية السرور الى مضجعي ونمت نومة طويلة ، عميقة . واستيقظت في الغد ، فأذهلني أن أشعر بترضرض في روحي ، وبطعم الفناء في فمي ، وبأثقال تميع على صفحة وجداني كأنها أحمال الدماء » .

مقال « الموضوع التائه » يشرح لنا بأسلوب طريف ، سقم المجادلات والمناقشات التي تجري في الأندية والمجتمعات .

أما مقال « أين وطني ؟ » فأرى فيه زفرة حارّة تطلقها مي لدى تفكيرها في وطنها المجهول ، الضائع بين الأوطان .

ويلوح لها في مقال « كن سعيداً » ان السعادة في متناول كل فرد . ويومض في رأسها التفاؤل بأن من أوتي نعمة الرضى والاطمئنان النفسي يجد السعادة في كل شيء . لكن هذا الرأي تدحضه مقالاتها الاخرى .

وفي « يوم الموتى » ترى الإنسان عبد القدر ، عبد الناموس الفرد الذي يستخرج الجديد من القديم ويدغم القديم في الجديد . « نحن في الدنيا مقيمون قبل الحياة والموت . والجحيم والفردوس في نفوسنا يتناوبان . تغزونا الحياة في الانتحار وفي الانتصار ، فنحن أبطالها ونحن ضحاياها ، سواء أشئنا أم أبينا » .

* * *

في هذه المجموعة ثلاث مقالات تشوبها مسحة من الغموض ، وتعبّر عن استرسال الكاتبة في الحلم وغوصها في دنيا التأمل والانطواء .

في المقالة الاولى : « الذكرى الجديدة » ترد عبارة « الروح الكلية » ، وهي من عبارات الصوفيين الذين أرادوا بها روح الله الموزّعة في الكون ، المتغلغلة في كل ذرة من ذراته . وتتضمن حديث مي عن ذكرى جديدة « تربعت على عرش معبد الاذّكار القائم في أعماق روحها » وسيطر تأثيرها على جميع أعمالها . أصبحت القوة الموجهة لجميع خطاها ، والمصدر الحافز لإقدامها أو تباطؤها . الدافع لحماسها في الدفاع ولثوراتها وتخيُّلاتها المؤنسة ، ولحبّها الذي يحتوي العالم .

ما هي هذه الذكرى التي تبالغ مي في وصف تأثيرها ؟

يأتي الجواب في الفقرة التي تقول إن ذكراها تلك سيكون نصيبها الحياة والتماسك بعد موتها ، حين تحل الذراري الجديدات

محل الذراري القديمات ، « فتجلس فتاة في صباح خريف شجي كهذا الصباح ، على مقربة من نافذتها وراء الأستار المخرمة ، وترسل نظرها الى الأفق الذابل ، يتفتنها سحر الطبيعة ، ساكباً أنوار الفجر في نقي السحاب . وتسأل نفسها : «أين السعادة ؟» فتتملكها رغبة فجائية في ركوب تلك السحابة ذات الشكل الطودي ، واثقة من أن السعادة كلها في اعتلاء متن النور والهواء !

« فتاة المستقبل سترجع بعد حين ، وتضحك من رغبتها قائلة : إن هذا لجنون » .

بهذا توضح لنا مي أن الذكرى ، أو الفكرة ، التي عاشت بعدها في رأس فتاة أخرى ، هي فكرة البحث عن السعادة ، التي عليها يدور معظم مواد الكتاب .

وبذلك تؤكد مي أن الطبيعة البشرية لا تتبدل وإن تبدلت الأشكال . وأن البحث المجنون عن السعادة وعن غاية الحياة سيظل هدف الناس الأكبر على مدى الأجيال . وبرغم عقم السعي وخيبة الأمل ، سيظل التساؤل والاستقصاء رائد حياتهم وموجّه أحلامهم وحافز نشاطهم الذي لا يقف إلا بوقوف دولاب العمر .

فكأني بها تستبق رأي سارتر : السعي عبث ولكن لا بد من السعي .

في المقال الثاني من المقـــالات الثلاث ، وعنوانه : « أيها الغريب » ، تتخيل مي شخصاً صنعته من أحلامهـــا ودعته الغريب. شخصاً جمع السجايا والفضائل التي تحلم بها وتتوق إليها. لكن هذا الشخص لا وجود له في الواقع .

إنه إنسان يفهمها وتفهمه . يلاحظ أعمالها ويتتبع خطاها . تثق به كثقتها بنفسها وتفزع إليه في أوقـــات الحزن والفشل فتبثُه شكواها، تحدّثه عن خفايا نفسها، عن حاجاتها المستترة، وعن ضعفها المقنّع بقناع القوة والصلابة .

هذا الإنسان الذي تصبو مي الى وجوده هو الذي تستطيع ان تتخذه أباً وأخاً وصديقاً وقريباً وعشيراً . لأنهـا تفتقر الى كل هؤلاء .

هو الذي تعترف أمامه بهفواتهـــا وتؤدّي له حساباً عن أعمالها . تقبل نصحه وإرشاده . تعـــده بالتوبة وتلتمس منه الغفران . وهو يدرك حقيقة نفسها كما تدرك حقيقة نفسه ، فلا هو يصدّق المتحاملين عليها ولا هي تصغي الى وشاية منافسيه .

انه ذاتها الثانية. بطل الأحلام الذي تلازمها صورته وتتعبّد له في باطنها . تتوق الى خدمتـه ومواساته وتستمد منه عزماً ووحياً . لكنه مجهول لديها كما هي مجهولة لديه .

كذلك في المقال التالي الذي عنوانه «عند منعطف السبيل»، تخاطب مي شخصاً خيالياً مدّ إليها يد الإنقـاذ حين فكّرت

في الانتحار . أنار طريقها وسط الظلمات ، علمها حب الوجود، واكتشف فيها جديد العوالم .

هو إنسان نشأ بينهـــا وبينه تعاطف خفي . حبّ صامت مكتوم . دلّت عليه النظرات والحركات .

ثم تتساءل الكاتبة : من هو هذا الإنسان ؟

أوَحْيٌ من شاعريتها ؟ طيف من أطياف شوقها وعذابها ؟ أم حقيقة محسوسة مرّت في أفق حياتها مرور السفن في البحر ؟

إنه كل هذا . إنه رمز أشواقها الدفينة . كما أن « الغريب » الذي عجزت عن استنطاقه وإدراك معنى سكوته في «السهرات الراقصات » ، هو كذلك تجسيد لأمانيهـــا الضائعة وأشواقها المستحيلة .

* * *

كتاب « ظلمات وأشعة » ، بالرغم مما يتكرر فيه من صور الحيرة والألم والتساؤل اللاجدي ، يحتل مكانة خاصة بين مؤلفات مي ويتمتع بشعبية ثابتة . لأن في أسلوب مقالاته تنويعاً وطرافة يقفان حائلاً دون رتابة الجو ويمسحان عنه صفة الإملال . وفيـه من الشاعرية الصافية وموسيقية العبارة ما يستهوي القـارىء في كل بيئة وزمان .

إنه كتاب نثر شعري ، لا ينصفه العرض السريـع ، ولا بد لتذوّقه من قراءته كاملاً وبإمعان .

أسلوب مي

لو أردنا اليوم تقييم أبحاث مي وخطبها الاجتماعية من حيث المضمون، لقلنا انها في معظمها أبحـــاث موجزة وتعميات غير مفصّلة. وإن كثيراً من الآراء والنظريات الواردة فيهـــا، إلا بضع لمحات وخواطر مستقبلية، قد تخطّاها الزمن وتضاءلت قيمتها أمام هجوم الطريقة العلمية التي استنبطها علماء الاجتماع، طريقة التجربة الواقعيـــة المعتمدة على الاستجواب والتصنيف والإحصاء والاستنتاج، المعبّر عنها بالأرقام والخرائط والخطوط البيانية. إلا ان كتابات مي الاجتماعية تحتفظ بقيمتها من ناحية جمال الأسلوب وصحة التنسيق والتعبير، وما يتخلل أبحاثها من ملاحظات دقيقة تدخل أحياناً في نطـــاق الحكم والكلام المأثور [١].

أما أشعارها والمقالات التي تتضمن خواطرهـــا الحميمة

---

(١) جمع قسماً كبيراً من أقوالها المأثورة جميل جبر في « مي زياده في مذكراتها » م. س.

ومذكراتها وقصصها فهذه تجمع بين طرافة الأسلوب وتوقّد العاطفة والخيال وهي من الأدب الذي يعيش ولا يذهب بقيمته مرور الزمن .

نبغت مي في عصر النيو كلاسيكية . أي في عصر جرى فيه بعث الأسلوب العربي الأصيل ، وروعي فيه مقدار من التجدّد البعيد عن التطرّف والتكلّف ، وكان حرص النقّاد آنذاك على سلامة اللغة وأصالتها حرصاً شديداً جعلهم ينتقدون تجديد شوقي ويحاسبونه على هفوات لا نحسب لها اليوم حساباً . فلم يكن في وسعهم أن يتساهلوا مع حملة الأقلام وأن يقبلوا في صفوفهم المتطفلين ، لا سيما إذا كان المتطفل امرأة .

إن كبار الأدباء في مصر أجمعوا على الإعجاب بأسلوب مي واستحسان ما فيه من تجديد . منهم العقاد الذي يقول في نقده لكتابها « الصحائف » إنها « كاتبة مطبوعة »[1] ويعقوب صروف الذي كان يتتبّع جهودها ويرعاها في أول عهدها بالكتابة ، فيمدّها بالملاحظات ويقول لها مداعباً انها تفكّر بالفرنجية حين تكتب بالعربية ، لكنه في مقدّمة «باحثة البادية» يثني على الكتاب بقوله : « إنها جارت أكتب الكتّاب الاوروبيين في هذا النوع من البحث والانتقاد ... وإذا كان

(١) « مطالعات في الكتب والحياة » مصر ١٩٢٤ . ص ٢١١-٢١٢ .

بعض استعاراتها مقتبساً من لغات اوروبية فذلك ليس بدعاً في العربية . بل قد سبق إليه جماعـــة من أساطين الكتّاب مثل الجاحظ والصابي وابن المقفع وابن خلدون فزادوا في غنى العربية بما أضافوا إليها »[١] .

ويقول منصور فهمي في مقابلة أجراها معه محمد عبد الغني حسن : « إنني أعدّ الطريقـــة التي جرت عليها مي في كتابتها مثالاً للكتابة الراقيـــة » . ويضيف : « كان لهذا الأسلوب المتميّز ، المختارة ألفاظه ، المنمّقة عباراته ، جرْس جميل في أذن السامع ووقع حسن في نفس القارىء ، وكثيراً ما كانت توفّق مي في هذا السبيل »[٢] .

إن ميّاً ، كما قال فيها العقاد ، « كاتبة مطبوعة » ، جادّة في ما تكتب ، علمياً كان أم أدبياً .

في أبحاثها العلمية ، في « المساواة » مثلاً ، نلاحظ أن حرصها على جمال العبارة واختيـــار الكلمة المناسبة وابتكار اللفظة الجديدة لا يختلف عنه في مقالاتها الفنيّة الوجدانية .

ومثله حرصها على تنويع الأسلوب رغبـــة في حفز نشاط القارىء . فبينما هي في مجال كلام إثباتي تقريري ، إذا هي تنتقل

---

(١) مقدمة « باحثة البادية » ، م. س.

(٢) « مي أديبة الشرق والعروبة » م. س. ص ٢١٧ .

إلى الهتاف والخطاب والعبارة البيانية ، فتقول :

« الأرستوقراطية ضرورية لمنفعة الأمة . آه . إني اسمع زئيركم يا دعاة المساواة ! وأرى ازوراركم أيها الأساتذة الديمقراطيون ! »[1] .

أو تأتي بنكتة ترفيهية . أو تنتقل من الحديث عن غائب الى مناجاته : « كروبتكن ! كروبتكن ! أنت الذي كنت من أهل الوحي والرؤيا قبل أن تصير مليك المؤامرات السياسية وتناسيت مرتبتك لتمتزج بالشعب ... أنت الذي عرفت أبهة بلاط القياصرة .. »[2] .

في خلال عرضها وإيضاحها لبعض النظريات بطريقة المنطق والبرهان ، نراها تقحم الوصف والمعارضة والتعداد فيصبح أسلوبها فنياً وعلمياً في آن واحد :

« من عجائب الطبيعة وضعها النقيض بجوار النقيض : تجعل الأكمة الجرداء قرب البحر الزاخر ، وخضرة الخمائل وخصب الواحات وراء رمال الصحاري وقحط القفار . حيال الذروة الارستوقراطية يزينها تاج الملكية ، تحفر البطاح لسيل العبودية الجرّاف ، حيث تتزيّف السجايا وتتلاشى المكرمات . ما أقامت

---

(١) « المساواة » م. س. ص ٣٤ .

(٢) المصدر نفسه ص ١٢٧ .

ارتفاعاً إلا أوسعت تخومه تجويفاً ، وما جادت بنابه إلا بلت بعتوه ، ولا سلّمت بوليد إلا ودّعت بصريع »[1] .

إن أسلوبها البحثي يميل الى الأناقة من غير أن يفقد صبغته العلمية وقوته التحليلية . يلتزم الدقـة والموضوعية رغم كونه يشفّ عن نفسية الكاتبة ويبرز حرارة شعورها .

أما أسلوبها الفنّي في الأشعار والنثر الشعري والرسائل ففيه من الصفات المميّزة ما يستحق الدراسة على حدة .

* * *

في كل ما كتبته مي من شعر أو نثر فني وجداني ، أجد لذة خاصة في مطالعة مذكـّراتها : « يوميات عائدة » ، وأشعارها : « أزاهير حلم » . انها هناك الزهرة في أول تفتّـحها . في عذوبتها ودهشتها أمام الوجود . انها الطـــائر الغرّيد في انطلاقه الحر وزقزقته العفوية . إلا أن من يطـــالع أدب مي في طور النضج يلاحظ فيه استمرار الكثير من تلك الميزات التي تحبّب إلينـــا أسلوبها في سن المراهقة : الرقـّة والأنوثة والرشاقة وعدم التكلف . يَصدُق فيها قول العقاد : « علامة الكاتب المطبوع أن يكتب ما يوافق طبعه ، غير متوخٍّ فيه المحاكاة لغيره . وهذا هو شأن

(١) « المساواة » م. س. ص ٤١ .

الآنسة مي في جميع ما تكتب. إنها بنت جنسها البارّة بمواهبه، وهي مثل صالح من أحسن أمثلته، وعنوان عالٍ من أصدق عناوينه »[1].

في « رحلات السندباد »، من مقالاتها الذاتية الحرّة، تبرز خواطرها المشرقة، منطلقة على سجيّتها. تخشع أمام مناظر الغروب، تثور لتقاتُل الأمواج وهزيم الرعود. تفتح رئتيها لعطور البرتقال. تبتهج لرفرفة الأوراق. تتهكّم تهكّماً لطيفاً بجارها الألماني الذي يحتكر محادثتها طوال السهرة ولا يمنحها مجال التنفّس. أو تنقلك من جو الاسترخاء والأحلام لتفاجئك بنكتة: « كنت أفكّر مردّدة: سأظل كل هذا الاسبوع فريسة الأحلام، الفريسة السعيدة. سأنسى كل هذه الأيام أني جسد. فإذا « بالجرسون » يدق ناقوسه دقاً عنيفاً. مضى يدق في جميع الزوايا، شأن من يستنهض امّة للحرب والنضال، لا شأن من يدعو المسافر الى قاعة الطعام. وانقضّ على زاويتي ولم يكن فيها غيري. وظلّ يدق باستهتار. وأنا أصيح: « سمعت » ولكنه لم يسمع صياحي. ووضعت يدي بداهةً على سمعي، ولكن « الجرسون » لم ير مني أكثر مما سمع. لأنه كان يقوم بدق ناقوسه وإتمام واجبه بإلحاح وتصميم. فلم يبق لي إلا أن أضحك قائلة: وهل يمكنني أن أنسى أني جسد وفي

(١) « مطالعات في الكتب والحياة » م. س. ص ٢١١ – ٢١٢.

اهذا المركب المبارك جرس كهذا الجرس، يدقّه هذا «الجرسون» البطل ؟ » .

رسائلها العادية شبيهة بمذكراتها في بروز شخصيتها وطرافة تفكيرها . نتحقق هذا بمراجعة رسائلها الى يعقوب صروف والريحاني وجبران وسلمى صايغ وسواهم [١] . تقول لصديقتها جوليا طعمه دمشقيه صاحبة « المرأة الجديدة » ، واصفة نفسها في رسالة :

« أصحيح أنك لم تهتدي الى صورتي ؟ فهاكها . استحضري فتاة سمراء كالبن، أو كالتمر الهندي كما يقول الشعراء. أو كالمسك كما يقول متيَّم العامرية . وضعي عليها طابعاً سديمياً — فليسمح لي البلاغيون بهذا التعبير المتناقض — من وَجْد وشوق وذهول وجوع فكري لا يكتفي ، وعطش روحي لا يرتوي . يرافق أولئك جميعاً استعداد كبير للطرب والسرور واستعداد أكبر للشجن والألم. وهذا هو الغالب دوماً . وأطلقي على هذا المجموع اسم « مي » ، تري من يساجلك الساعة قلمها ! » [٢] .

* * *

---

(١) راجع « رسائل مي » تقديم جميل جبر ، دار بيروت ١٩٥٤ .

(٢) يقول أنطون الجميّل في رسائلها : « نوع جميل من أدب الرسائل في العالم العربي » (« مي أديبة الشرق والعروبة » م. س. ص ٢١٣) .

عالجت مي الشعر المنظوم في الفرنسية في « أزاهير حلم » .
وكتبت في اللغتين العربية والفرنسية نثراً شعرياً من النوع الذي نجده في الشعر الفرنسي والانكليزي الحديث ، وهو أقرب الى نثر جبران الشعري منه الى الشعر المنثور الذي شقّ طريقه أمين الريحاني في « هتاف الأودية » .

الفرق بين الأسلوبين أن الأول يمتاز بتقطيع العبارات وتنويع حجوم الفقرات ، بين قصيرة لا تجاوز الجملة الواحدة وطويلة تبلغ بضعة سطور ، الى جانب امتيازه بالتصوير الشعري والإيقاع الموسيقي أو النغم .

أما الشعر المنثور فيتألف من سطور قصيرة تقوم مقام الفقرات ، وتقابل سطور الشعر من غير ارتباطها بوزن أو قافيه.
وهذا النوع أدنى الى ما يسمّونه في الانكليزية « شعر طليق » ، «blank verse» في حين أن النثر الفني أو الشعري، الذي عالجته مي ، يشبه ما يسمّونه « قصائد النثر » ، « poèmes en prose,
prose poems»

في تحليلنا لأسلوبها هذا ، يحق لنا أن نستعين ببعض آرائها النقدية التي تلقي ضوءاً على مذهبها في الكتابة :

« كيف تنبض في الألفاظ المجرّدة الجامدة حياة سريعة ، متّقدة بثورة الشعور ، وهيجان الغضب ، وأنين الشكوى

ورنين النجاح والظفر ؟ لماذا تهتزّ الألفاظ تارة كالأوتار ، وتولول طوراً كأمواج البحر العجّاج ، وتهمس حيناً همساً عجيباً ، كأنما هو منطلق من سحيق الذرّات ومبهم الآمال القصوى ؟ »[1] .

في هذا الوصف نتبيّن الأهمية التي تمنحها مي للألفـاظ في قوّتها على الايحاء بالمعنى والتعبير عن الشعور . فهي في نظرها ، كما في نظر هوغو «كائنات حيّـة» ، لها ما لهذه من قوى و ميزات ظاهرة وخفيّـة .

إلا أن اللفظة بمفردها لا قيمة لها إلا إذا احتلّـت مكانهـا المناسب من الجملة ، فكانت فخمة ، هدّارة في مقـام يستدعي الفخامة ، رقيقة في مواضع الرقّـة ، متحرّكة ووثّابة في موقف حركة وتوثّب ، حالمة في مواقف الحلم . وقد لمسنا في ما أوردناه حتى الآن من كتابات مي وخطبها ، قدرتهـا الفائقة على حسن اختيار الألفاظ .

في مقالاتها الممتازة بالأسلوب الشعري ، تستهويها الألفاظ الطويلة المقاطع ، وترغب في استعمال جمع المؤنّث السالم :

دنا موسم السهرات الراقصات (بدل الراقصة)

وإذا وصلنا الى سلسلة الأطواد المتساندات ...

وتفتتت أجزاؤها متفرّقة في المدى الشاسعات

---

(١) « باحثة البادية » ، م. س. ص ٧٩ .

في موقف عاطفي ، تختار اللفظة الممتازة بجرسها الموسيقي :

« والآن إذ أسمع الرياح تعتَوِل » (بدل تعول)

« أنت تهلمِم بي أيها النهر » (تقول لي هلمّي)

لكن حرصها على أناقة العبارة لا يمنعها من اقتباس الألفاظ الدارجة ، « العامية » ، إذا رأتها حسنة الوقع وأكثر مناسبة من سواها .

تقول في رسالة لها الى جبران : « أنت « قيدتني » مذنبة في دفترك » وفي ص ٦٤ من « باحثة البادية » : « هو رسم جولة الفكر منهم مع ما تتضمنه من وخز « يفلفل » الأحاديث والمناقشات فيحميها من الملل » . وفي ص ٨٩ : « وهو بالجملة مصري، أسمر، «نغش»، جذاب». وكذلك في ص٥٣ من المصدر نفسه : « أما الآن وقد فهمت بهذا الإلحاد الاجتماعي الهائل ، فقد « نمّرني » أهل العصر وحشروني في فصيلة المتقهقرين والرجعيين » .

وفي إحدى قصصها تقول : « إذا تَحتّم « الأكسيدان » accident فليكن بعد وصولي الى البيت » .

تلجأ أحياناً الى خلق مفردات جديدة أو تعريب كلمات لا وجود لها في العربية . تستعمل لفظة « مكنزة »[1] تعريب

---

(١) في مقال « ميجيل دي أونامونو » الوارد في « باقات من حدائق مي » م. س. ص ٥٩٦ .

«mécanisation» بدلاً من « مكننة » التي نستعملها اليوم .

وفي مقالها عن الموسيقى [1] تأتي بلفظة « تَساوُق » لتقابل « آرموني » أو اصطحاب . وفي كتاب « المساواة » تستعمل لفظة « رِقّ » بمعنى «Servage» «Serfdom» [2] .

ويعجبني استعمالها كلمة « جلباب » بمعنى « قميص النوم » [3]

عبارتها تمتاز بالتنسيق الذي يضمن لها جمال النغم والايقاع. يُسعفها على ذلك قوة إحساسها الموسيقي وثقافتها الفنية . فالقارىء يترنّم بعبارتها ، كما ترنّمت مي باسم باحثة البادية في أول رسالة وجّهتها إليها. وهي لهذا الغرض تلجأ الى التوازن في عباراتها ، بحيث تتعاقب أزواجاً متماثلة التركيب :

« ما أسرع ما تتمزق أثواب الورود ، وما أتعس القلوب الشديدة التأثر » .

« طائر صغير أحببته شهوراً طوالاً . غرّد لكآبتي فأطربها. ناجى وحشتي فآنسها . غنّى لقلبي فأرقصه . ونادم وحدتي فملأها ألحاناً » .

---

(١) « بين الجزر والمد » م. س. ص ١٢٠ .

(٢) م. س. ص ٥٠ .

(٣) قصة « الحب في المدرسة » ص ١٠٧ من « باقات من حدائق مي » م. س.

أو تتعاقب متوازنة من غير أن ترتبط بعدد :

« نورٌ فكر أضاء ، ثم اضمحلّ في لجج العدم . وردة أثير تنفست ، فعطّرت ، وأسكرت ، ثم ذبلت » .

« صديق صغير غرّد فأطربني ، وسكن في جواري فآنسني ، ولما مزّق قلبي العالم بشرّه وصغائره ، غنّى طائري ، فأنساني قبح القباحة ، وجعلني أفكّر في كل حسن بهي »[1] .

من وجوه الايقاع ، استعمالها للتعداد :

« من القِمم والأودية ، من الصخور والينابيع ، من الأحراج والمروج ، تتعالى معاني بلادي في الضحى . وعند الشفق تتكامل أرواح الأشياء وتتجمهر كأنها تتداول في إنشاء عوالم جديدة »[2] .

وافتنانها في الرصف أو التقديم والتأخير في أجزاء الجملة :

« بلطف النسيم ، امتدّت اليد إليّ »[3] .

« هوذا مائج على الآفاق لألاء المواسم والأعياد . ومن أحشاء المدينة يصعد هزج النشوة والظفر »[4] .

---

(١) من « دمعة على المفرّد الصامت » « ظلمات وأشعة » م. س. ص ٣٣ — ٣٨ .

(٢) من « أين وطني » م. ن. ص ١٠٦ — ١١٢ .

(٣) و (٤) م. ن. ص ٤٣ و ٥٨ .

وفي التكرار الذي نلاحظ لها فيه فنوناً مستحبّة . في بداية مقالها : « حول قدمي أبي الهول » تقول :

« الأفق واسع واسع . والليل عميق عميق » .

وفي مناجاة السفينة الغريقة : « لوزيتانيا . لوزيتانيا » .
وفي مسيرها « نحو مرقص الحياة » :

« وتمزّق السموم وريقات زهرة رأسي . زهرة الياسمين التي زِنت بها رأسي » .

في تضاعيف المقال ، تكرّر أحياناً جملة أساسية ، أو عبارة تريد لفت النظر اليها ، وتلك طريقة جبران . من ذلك تكرارها للعبارة الساخرة ، في مقال « السهرات الراقصات » :

« ففتل شاربيه بأناقة . ورنا إليهما بإعجـــاب . ثم انحنى شاكراً لأنه متواضع » .

كما تكرّر العبـــارة الحكمية في مقال « ليلة عيد النصر » :
« عاملان اثنان يتجاذبان الجنان : عامل الحزن وعامل السرور . على أن قطرة حزن في عمقها توازي بحر سرور في اتساعه » .

***

من خصائص أسلوبها ، ولعها بالاشارات والاقتباسات التي

تزيد معانيها غنى وتنوّعاً . منها إشارات الميثولوجيا اليونانية في « نشيد نهر الصفا » .

« هنـــا اجتمعت بلابل أورفيوس لتعيد ذكرى أوريديس ذات القلب الكسير » .

« هنا نامت الأشباح بين أجفان المياه » .

« .. وعذارى الطرب تستخرج من عناقيد « باخوس » خمراً تسكر به الآلهة » .

وفي مقال : « نحو مرقص الحياة » : « لئلا تلطّخ الأوحال نعلي الاغريقي الابيض » .

ترد لها أحياناً إشارات فلكية : « من هو هذا الشخص ؟ ومن أي مذنّب مجهول في فيـــافي الفضاء هبط علينا ؟ » (من « باحثة البادية » .)

واقتباسات من الشعر القديم : « فاغترفت منها هذه المرة برضى وإقرار بالمعروف ، كأني من منهل فضله أغترف » . (من رحلات السندباد الثاني ، الرحلة الثانية) . في هذه العبـــارة اقتباس من بيت عربي قديم :

من بحر فضلك أغترف   وبفرط جودك أعترف

وفي تصوير طريف « لبعض النقـــدة العصريين » تستوحي

العبـــارة العربية المشهورة المنسوبة لعيسى بن عمر ، كما يقول صاحب « محيط المحيط » ، حين سقط عن حماره فاجتمع عليـه الناس : « ما بالكم تكأكأتم علي كتكأكؤكم على ذي جنـّــة ؟ افرنقعوا عني ! » . تقول مي :

« يفكـّهني أن أتخيـّل أحياناً أن جميع اصطلاحـات الثناء والإطراء أضربت عن العمل، هي الأخرى، لحين ما، فتكأكأت في مكان واحد متماسكة ، متجمـّدة . ففاجأتهـــا قنبلة تائهة . فافرنقعت متطايرة شظايا ملتهبة . تقمـّصت بفضل بعض النقدة « العصريين » قذفاً وطعناً وتهجـّماً »[1] .

وهناك الإشارات التاريخية والعلمية والدينية والأدبية التي تحشدها حشداً في كثير من مقالاتها . راجع مثلاً : « نشيد نهر الصفا » ، و « عند قدمي أبي الهول » في « ظلمات وأشعة » .

وفي الفصل الذي تحدّثت فيه عن مي « المقاليـّة » أوردتُ أمثلة تدل على حبهـــا للنكتة والقول الساخر . هذه الميزة التي يبدو أنها أصيلة في طبعها .

أما التصوير وابتداع الاستعارات والتشابيه ، فلهـــا فيه

---

(١) من نقد مي لعائشة التيمورية في ديوان « حلية الطراز » ، القاهرة نشر « دار الكتاب العربي » ١٩٥٢ ، ص ٣٦ .

طرائف تشهد لها بقوة الابتكار . تقول في وصف « باحثة البادية » :

« كأنما هي جوهرة ذات سطوح شتى ، تلمع في كل منهن ألوان جذابة وأشعة فتانة ، بينما عنصر الجوهرة يظل واحداً » .

وفي تعريف النقد تقول بأسلوبها الفكه [1] :

« ليس النقد بالبلاغ العسكري يعلن الأحكام العرفية ، ولا هو بالمنشور الأسقفي يحرم عضواً من شركة المؤمنين وشفاعة القدّيسين . ولا هو بأمر المعلّم القروي (على الطراز القديم) ، غضب على تلميذ مسكين لم يحفظ أمثولته كما ينبغي ، فحظر عليه أن يأكل أو يشرب أو يتحرك أو يتنفس بغير سماحه . كلا . ليس النقد بشيء من ذلك . إنْ هو إلا نظرة فرد معرّض للخطأ في عمل فرد آخر معرض للخطأ ، يختلف عنه ميولاً وتأثرات وكفاءة ووراثة » .

في وصف مجلس فتيات في الجامعة المصرية :

« كان يتخلل هذه الثرثرة النسائية ضحك طويل يدبُّ دبيبه » .

وفي ردّها على كاظم الدجيلي : « اسم قصصي حماسي ، طويل

(١) من نقدها لديوان « عائشة التيمورية » م. س.

كالشواطىء ! » .

وتقول واصفة ثوب فتـــاة عصرية : « فستانها ذو الزرقة الكهربائية » .

وتبرع في الوصف على أنواعه . الوصف الشعري للعيون :

« تلك الأحداق القائمة في الوجوه كتعاويذ من حلك ولجين ،

« تلك الميـــاه الجائلة بين الأشفار والأهداب كبحيرات تنطـّقن بالشواطىء وأشجار الحور .

« العيون . ألا تدهشك العيون ؟

« العيون الرمادية بأحلامها .

« والعيون الزرقاء بتنوّعها .

« والعيون العسليّة بحلاوتها .

« والعيون البنيّة بجاذبيتها .

« والعيون القاتمة بما يتناوبها من قوة وعذوبة .

« جميع العيون ،

« تلك التي تذكـّرك بصفاء السماء .

« وتلك التي يركد فيها عمق اليموم .

« وتلك التي تريك مفاوز الصحراء وسرابها ،

« وتلك التي تعرج بخيالك في ملكوت أثيري كله بهاء .

« وتلك التي تمرّ فيها سحائب مبرقة ، مهضبة ،

« وتلك التي لا يتحول عنها بصرك إلا ليبحث عن شامة في الوجه ... » .

وفي موسيقى الأجراس في لبنان ، تقول من رسالة الى أمين الريحاني ، كتبتها سنة ١٩٣٩ ، وربما كانت آخر رسالة لها :

« فأين منها شدو الأجراس اللبنانية . ذلك الشدو الشرقي البلدي الديمقراطي ، ينطلق من كل حَدْب في الأعالي والأداني ، ويجتاز كل حيِّز من أقطـــاب الأفق ، مازجاً أصداء القِمم بأصداء الأودية ، حتى يملأ الهواء عزيفاً وحنيناً ساعات طويلات ، وينسج من شتيت أنغامه سيمفونيا لبنـــانية ولا سيمفونيات بتهوفن » .

ومنها الوصف الفكه لسهرة في بيت الريحاني ، الفريكة :

« .. السهرة حيث تُقبل أنت والست سعدى ، والمصطافون من الصادريين ، ومعكم هيئة أركان حربكم . العفريت وتوابعه ، (أم أنتم هيئة أركان حربه ؟) يتقدمكم مصباحكم « اللوكس » معلناً عن قدومكم الميمون ، وأنتم بعد داخل الدار ، قبل أن تخطوا في الخارج خطوة واحدة ، كأنما ذلك المصباح التـاريخي رمز لفكر الريحاني ، ما إن اتـّجه ذلك الفكر الى ناحية ما إلا

شيءٍ في الفضاء أخدوداً رحيباً من النور المنبىء بوقود مركزه المتحرك » .

(من رسالة الى الريحاني سنة ١٩٣٩)

***

تلك هي أهم خصائص شاعرية مي التي وصفها خليل مطران إذ قال : « إن شاعريتها في العربية كُتبت بطريقة النثر الفني . وهذا هو ما اختصَّت به في أسلوب كتابتها الى أن مـــاتت ، فتكتب مصوِّرة وملحِّنة ومقسِّمة للكلام على تقاسيم شعر خفي تتحرّك به النفس »[١] .

إلا أننا إذا أقررنا لمي بالعبقرية الكتابية ، لا يفوتنا أن نشير إلى أثر أدباء المهجر ، ومنهم جبران ، في توجيهـــا شطر الموضوعات الميتافيزيقية ، وفي اعتمادها أسلوب المناجاة في بعض مقالاتهـــا . مثلاً : « نشيد نهر الصفا » ، « يا سيدة البحار » ، « عند قدمي أبي الهول » (في « ظلمات وأشعة ») . وكذلك في التزامها التقطيع الموسيقي وافتنانها في التكرار . في ميلهـا إلى الإبهام الذي نلمحه في مقالات سبق عرضها (« أيها الغريب » ،

---

(١) « مي أديبة الشرق والعروبة » م. س. ص ٢٣٩ .

« عند منعطف السبيل ») في فصل مقالاتها الحميمة . كما في استعمالها الألفاظ المجرّدة الكونيّة ، ومزجها المجرّد بالمحسوس .

« نظر إليّ نظرة وراءها محافلُ الأجيال ومواكب الدهور . فجلست في ظل سكوته . ولم يكن سكوته سوى سكوت الفضاء المملوء بحفيف الأفلاك . وانبسطت دوائر فكره ، وترامت قليلاً قليلاً ، فاحتوت هالة كياني . واجتذبتني منه القوة السحرية الى سويداء قلب الوجود ، حيث الليل الأليل يفضي إلى برج الأضواء » . (« السهرات الراقصات ») .

« واستيقظت في الغد ، فأذهلني أن أشعر بترضرض في روحي وبطعم الفناء في فمي . وبأثقال تميع على صفحة وجداني كأنها أحمال الدماء » . (المصدر نفسه) .

ولا يخفى أن تأثير الأدب المهجري يمتزج عند مي بتأثير الأدب الرومنطيقي الذي نهلت من معينه يوم كانت طالبة على مقاعد الدراسة . فموضوعاتها الوجدانية هي موضوعات الرومنطيقيين ، وتأملاتها تأملاتهم . مثلهم تمجّد الألم ، تناجي الطبيعة والآثار ، يشوقها ذكر الوطن ، يهزّها بكاء الطفل ، تذرف دمعة على المغرّد الصامت ، وتتغنّى بأسرار العيون .

وقد اتضح لنا ، في ما استعرضناه من مقالاتها وخواطرها الحميمة ، أن أسلوبها يستوحي الرومنطيقيين في تخطّي الواقع واستخراج الكلّي من الجزئي . فالتجربة الذاتية المحدودة تفتق

خيالها الخصب بحيث يتدفق بالمعـاني ويسوقها الى التفكير على مستوى عالمي .

في المقالة التي وصفت فيها زيارتها لمحكمة الجنايات ، تتحدث عن انطباعاتها بدقة وبعبـــارة تنم عن تأثر بالغ . تعارض بين خصمين : القاضي والمتّهم اللذين تؤلف بينهما صفات كثيرة ، يشترك فيها البشر مهما باعدت بينهم المراتب والفروق . ثم تتّسع رؤياها لتشمل أحكام الجور والتعذيب التي يصدرها القضاة ظلماً في جميع محاكم العالم :

« تلاشى فجأة ما يحيط بي واتّسع القفص ، وأضيفت إليه جميع الأقفاص في جميع محاكم العـالم ، وقد حُشر فيها الألوف والملايين . ورأيت في عيون الجنـاة صور جناياتهم ، وفي عيون الأبرياء صور براءتهم . وفي جميع العيون أشباح الخوف والفزع . وسمعت الأحـكام على العبيد وعلى الملوك . على المظلومين وعلى الظالمين . وتراءت لي السجون بغموضها والأشغال الشاقّة بذلّها وآلات التعذيب بهولها ... وفي هذه الغرفة التي كانت تبسم منذ هنيهة ، سمعتُ صلصلة السلاسل ، وقعقعة القيود . ولمحتُ أحكام الإعدام تنفّذ على لابسي البذلة القرمزية » .

بعد هذه الوثبة الخيالية ، تأتي مي بصورة تبرز فيها التعارُض بين شقاء الإنسان وهناء الطبيعة :

« عند العمود الضخم المنتصب أمـام المحكمة ، رفع أحـد

المتّهمين بصره ، إلى افريز العمود الأعلى ، وإذا بطـائرين قد وقفـا جنباً الى جنب ، يُنشدان أنشودة الحيـاة والحب والحرية)[1] .

★ ★ ★

وبعد ، أود أن أختم هذا الفصل الطويل بكلمـة موجزة لأحمد حسن الزيات ، وردت في « المقتبس من وحي الرسالة » :

« أما بعد فقد قال بشار لبعض جلسائه ذات يوم : ما سمعت شعر امرأة قط إلاّ أحسست فيه الضعف . فقيل له : أوَ كذلك الخنساء ؟ فقال في لهجة الفطن المحترس : تلك فوق الرجـال .

« ونحن نقول في مي ما قال بشار في الخنساء ونزيد عليه أن مي هي الأديبة الكاملة في تاريخ الأدب العربي كله »[2] .

---

(١) « باقات من حدائق مي » ، م. س. ص ١٣٦ – ١٣٩ .

(٢) « المقتبس من وحي الرسالة » ، مكتبة الشرق ومطبعتها في حلب ، لا تا ص ٢٣٢ – ٢٣٥ . و « الرسالة » هي المجلة المصرية التي كان يصدرها أحمد حسن الزيات ، وقد خصّتها مي بعدد من كتاباتها ، سنة ١٩٣٥ .

كلمة ختامية

نبغت مي في عهد تفجُّر وانطلاق أدبي، فكان توهُّجها من توهج عصرها . برهنت على أن الأديب لا ينسلخ عن عصره، ولا يمكنه أن يتوهَّج في عصر منطفيء .

كان أدبهـا حصيلة التفاعل والانصهار بين ثقـافتي الشرق والغرب . ونموذجاً للتجديد الموفـّق في الموضوع والأسلوب .

عبّـرت عن أماني عصرها وحاجاته وأحياناً جاوزت العصر وشارفت المستقبل البعيد .

عالجت موضوعات الساعة . ساندت النهضة النسائية بخطبها وقلمها وعطائها الفكري ونضالها الاجتماعي. خاضت موضوعات كانت في عهدها بعيدة عن مستوى الجماهير ويكاد يتعثـّر فيها الاختصاصيون ، منها : موضوع المساواة ، الديمقراطيـة ، الاشتراكية ، هنري برغسن .

مارست المقالة بأنواعها ، عالجت الخطابة والشعر المنثور ،

وفي أحيان قليلة القصة والمسرحية .

أسلوبها ، بحثياً كان أم شعرياً ، مثـــال للتجديد المبدع ، الملتزم بحسن الذوق . وهو من الأساليب التي تثبت للزمن . يستمتع به القراء ويقتدي به الطلاب .

وكما كانت مي في تفوّقها ورفعة نتاجها وليدة عصرها الغني بالأدباء اللامعين ، كانت كذلك ضحية عصرها الفقيـر بالروح العلمية ، المتخلّف في ميدان الطب والأبحاث العلمية العميقة ، الخاضع لتقاليد غارقة في القدم ، تَعتبر الاضطراب النفسي أو العصابي جنوناً ، وتصم صاحبه بوصمة عار تزيد في شقائه ، وقد تقف حائلاً دون شفائه .

بانطفاء مي ، انقضى عهد العمالقة . انطفأت البسمة عن وجه الأدب العربي . وطلع علينا أدب كالح الوجه ، ينذر بالعواصف والكوارث . أدب التشاؤم والضيـــاع . أدب التمرد والعبث واللامعقول .

والكابوس الذي جثم بقوّة على صدر العالم العربي ، جثم على صدر الأدب .

* * *

من أقوال مي المأثورة

رأيها في الحب :

الحب الذي يجعل العـــالم هيكلاً تخشع فيه النفوس فتجثو للعبادة والصلاة والاتحاد الروحي مع جميع قوى الكون هو هذا الذي نعنيه عندما نتكلم في الحب ونعظّم عواطف الحب .

في الصداقة :

ان الصداقة تزرع الحياة أزهاراً .

في الثورة :

الثورة ككل جرأة . في وقتها ومكانها عبقرية وانتصار . وفي غير ذلك حماقة واندحار .

في النقد :

النقــد وحي لأنه يدرك الوحي ويحتضنه . وحرية لأنــه لا تمييز في العبودية .

النقد من أخص خواص عصرنا ، في السياسة ، والإدارة ، والقانون . والتاريخ ، والآداب ، والاجتماع ، نرى النقد شائعاً بمختلف اللهجات والأساليب . حتى الاكتشافات العلمية وانقياد عناصر الطبيعة لخدمة الإنسان جاءت عن طريق النقد .

لا يقوم الحاضر إلا على قاعدة الماضي . فليذكر هذا أولئك الذين يقولون بالهدم المطلق .

نحن في حياتنا الأدبية الحاضرة أشبه ما نكون بالعبرانيين في صحراء التيه فأنّى لنا الدليل الخبير يسير أمامنا في النهار عموداً من السحاب وفي الليل عمود نار يُضيء لنا ؟

حتى ولو سار العمود أمامك يهديك سواء السبيل فلا بد ان تكون لنفسك المصباح والدليل .

في المرأة :

من ظريف النكات في الثناء على المرأة الذكية قولهم : « إنها تجاري الرجال » . ولماذا لا تكون مجارية نفسها التي تكتشفها كل يوم ؟

يجب أن يُبدأ بتعليم المرأة لأنها الأكثر جهلاً . يجب إصلاحها السريع ليتيسّر إصلاح الرجل . يجب أن يباشر تحرير المرأة كيلا يكون المتغذّون بلبنهـا عبيداً . يجب أن يحسر غشاء

الخزعبلات والأوهام عن عينيها ليدرك الناظر فيها من زوج وأخ وولد أن معنى الحياة عظيم .

في السعادة :

سعادة الإنسان طوع إرادته . فالرجل الشجاع الذكي يعرف كيف يجعل كأس آلامه حلوة المذاق ويحوّل غذاءه الحقير الى أفخر المآكل ، ويجعل من الماء خمرته المعتّقة بلونها وصفائها . ومن مضجعه الخشن فراشاً وثيراً . ويعرف أن يُحل الأمل محل اليأس .

قضبان النوافذ في السجن تنقلب أوتار قيثارة لمن يعرف أن ينفث في الجماد حياة .

إن للأماكن أرواحاً

أنا الآن في غرفة صغيرة تابعة لمكتبة الجامعة . وليس في هذه الغرفة من الكتب إلا ثلاثة أجهل اسمها ولغتها لأنها خفيت تحت كتاب رابع من تأليف مارمونتل وهو أديب فرنسي لم يتفوق في موضوع من الموضوعات الكثيرة التي عالجها بل اكتفى بالاجادة فيها جميعاً إجادة معتدلة ، تاركاً البراعة والتفوق لاستاذيها الكبيرين فولتير وروسو .

إن في هذه الغرفة الصغيرة روحاً تناجيني وسراً أطمع في

اجتلاء غوامضه . كل مـا يحيط بنا في الحيـاة سر ولغز ولكن حواسنا المثقلة بأحمال المادّة تحجب عنا الأنوار الكامنة فلا نرى للأشياء وجوداً ولا ندرك لها حقيقة إلا بقدر مـــا تتفق مع أطماعنا وشواغلنا .

صدق القائل إن للغرف أرواحاً .

ما هي امنيتي في الحياة ؟

أيمكن أن تحوي الحياة أمنية واحدة ؟ إن الأماني تتغير مع الوقت . وكل أمنية هي العظيمة ، بل هي الواحـــدة العظمى عندما تقطن جوارحنا وتستولي على كياننا . وهل تصدق أن المرء يبوح للناس بأعظم أمانيـــه ؟ قد يبوح ببعضها في هذه المناسبة أو تلك ولكن الأمنية الكبرى تظل سراً مكتوماً بينه وبين نفسه . ولو فقد كل شيء آخر ، لبقيت تلك الأمنية رأس ماله الخاص الملاصق لأخفى مـا يخفي في قدس أسراره وإذا أبيت إلا أن أبوح بأمنية ما فهي أن تظل الأماني متجدّدة في نفسي ما دمت حية ، وأن أموت يوم أصبح غير قادرة على التمنّي .

(جمعت هذه المقتطفات من كتاب «مي في مذكراتها» نشر جميل جبر ، دار الريحاني ، بيروت) .

مؤلفات مي *

في الفرنسيــــة

١ – « أزاهير حلم » «Fleurs de Rêve» بإمضاء ايزيس كوبيا ، نشرت في القاهرة سنة ١٩١١ مع « يوميات عائدة » في الفرنسية كذلك . ترجمت مي قسماً منها ونشرتها في « الهلال » ١٩٢٤ ، وترجم الباقي جميل جبر ونشر المجموعة في العربيـــة ، في دار بيروت ، سنة ١٩٥٢ .

في العربيــــة

٢ – « باحثة البادية » نشر المقتطف ، ١٩٢٠ .

٣ – « سوانح فتاة » ، دار الهلال ، ١٩٢٢ .

٤ – « المساواة » بحث اجتماعي ذيَّلته بتمثيلية عنوانها : « يتناقشون » ، نشر دار الهلال ١٩٢٢ .

٥ – « ظلمات وأشعة » ، دار الهلال ١٩٢٢ .

* جُمعت مؤلفـــات مي زيادة في مجلدين ، في طبعة أنيقة – منشورات مؤسسة نوفل – بيروت .

٦ – «كلمات وإشارات» مجموعة خطب،دار الهلال١٩٢٢.

٧ – «عائشة تيمور، شاعرة الطليعة» دار الهلال ١٩٢٤. نشر أيضاً في «حلية الطراز، ديوان عائشة التيمورية» القاهرة، مطبعة دار الكتاب العربي، ١٩٥٢.

٨ – «وردة اليازجي»، نشر المقتطف ١٩٢٤.

٩ – «الصحائف»، المطبعة السلفية، القاهرة ١٩٢٤.

١٠– «بين الجزر والمدّ»، دار الهلال ١٩٢٤.

كتبها المترجمة

١ – «الحب في العذاب» لكونان دويل Conan Doyle عن الانكليزية. نشر سنة ١٩١١.

٢ – «رجوع الموجة» للكاتب الفرنسي برادا نشر سنة ١٩١٢.

٣ – «ابتسامات ودموع» أو «الحب الألماني» عن الألمانية لفردريك ماكس مولر، دار الهلال ١٩١٢ طبعة اولى، ١٩٢٤ طبعة ثانية.

رسائل مي

«رسائل مي» قدّم لها جميل جبر، دار بيروت ١٩٥١.

كتابات متفرقة لمي لم تجمع في كتاب

١ — « غرفة في مكتبة » .

« المقتطف » جـ ٥٣ ص ٤٦٥ سنة ١٨ .

(نشرت في «باقات من حدائق مي » لفاروق سعد، ص ٩١ — ٩٧) .

٢ — « العقل والقلب » .

« المقتطف » ، اكتوبر ١٩١٨ ج ٥٣ .

(مقتطفـــات منها في « باقات من حدائق مي » ص ٤٧٢) .

٣ — « هنري برغسن » .

« المقتطف » ، في عددي آب وأيلول ١٩١٨ .

٤ — « غاية الحياة » محاضرة ألقتهـــا في الجامعة المصرية نيسان ١٩٢١ ، نشرت في المقتطف ج ٥٨ ، ١٩٢١ ، ثم في كتيِّب صغير .

٥ – « الريحاني وفضل المشرق »
« المقتطف » ، مارس ١٩٢٢ .

٦ – « على الصدر الشفيق » مسرحية نشرتها « الهلال » ١٩٢٣ .

٧ – « حكاية السيّدة التي لها حكاية »
(في « باقات من حدائق مي » ص ٦٧٩) .

٨ – « لدويج فان بتهوفن »
« المقتطف » ، مارس ١٩٢٧ ، ابريل ١٩٢٧ .

٩ – « المجرم القديم » قصة مقتبسة عن مسرحية للشاعر الألماني رينر ، المقتطف ، فبراير ١٩٢٨ .

١٠– « جبران خليل جبران » بمناسبة صدور كتابه الانكليزي « يسوع ابن الانسان »
المقتطف جـ ٢٧ ، ١٩٢٩ .

١١– « الشمعة تحترق » ، قصة نشرت في « الهلال » ١٩٣٣ ثم في مجلة « المرأة الجديدة » ، كانون الاول ١٩٤٩ .

١٢– « الحب في المدرسة » ، قصة نشرت في « الهلال » نوفمبر ١٩٣٤ وفي « المكشوف » بيروت ، عدد ١٤٨ ، أيار ١٩٣٨ .

١٣- « فضل المرأة على المدنية الحديثة »
المقتطف ج ٨٤ ، ١٩٣٤ .

١٤- « نشيد الى الشرق »
المقتطف ج ٨٥ ، ١٩٣٤ .

١٥- « ميجيل دي أونا مونو » مقال نقدي ،
المقتطف ، فبراير ١٩٣٥ .

١٦- « أمبير جلوا » ، بمناسبة انقضاء خمسين عاماً على وفاة
هوغو ، مجلة « الرسالة » ١٩٣٥ .

١٧- « بيراندللو ومسرحيـــاته الوجيعة » مقال نقدي ،
المقتطف ، كانون الثاني (يناير) ١٩٣٥ .

١٨- « السر الموزّع » قصة ، مجلة « الرسالة » ١٩٣٥ .

١٩- « مساجلة الرمال » نثر شعري
مجلة « الرسالة » نيسان ١٩٣٥ .

٢٠- « ارتياب » Doute
قصيدة نشرت منظومة بالفرنسية ومنثورة بالعربية .
مجلة « الرسالة » ١٩٣٥ .

٢١– « هوذا الربيع » ، نثر شعري
مجلة « الرسالة » ، مايو ١٩٣٥ .

٢٢– « رسالة الأديب الى الحياة العربية » محاضرة نشرتها جمعية « العروة الوثقى » في الجامعة الاميركية بيروت ، آذار ١٩٣٨ .

٢٣– « العم أبو الحسن يستقبل » .
أقصوصة نشرت في مجلة « الحسناء » بيروت ، في ١٨ شباط ١٩٧٧ ، عدد ٧٤٦ .

٢٤– « أمام ينابيع رومة »
مقالة وردت في رسالة من مي للعقاد نشرت في «لمحات من حياة العقاد » (نشر دار الشعب بالقاهرة ١٩٧٠) ونقلت في « باقات من حدائق مي » لفاروق سعد ص ٢٠٠ – ٢٠٢ .

مراجع البحث

١ – جبر ، جميل « مي في حياتها المضطربة »
دار بيروت ١٩٥٣ .

٢ – جبر ، جميل « مي زياده في حياتها وأدبها »
المطبعة الكاثوليكية ١٩٦٠ .

٣ – جبر ، جميل « مي وجبران »
دار الجمال ، مطابع فضول ،
١٩٥٠ .

٤ – حسن ، محمد عبد الغني « مي أديبة الشرق والعروبة »
دار عالم الكتب ، القاهرة
١٩٦٣ .

٥ – سعد ، فاروق « باقات من حدائق مي »
نشر زهير بعلبكي ، بيروت
١٩٧٣ .

٦ – سكاكيني ، وداد «مي في حياتها وآثارها»
دار المعارف بمصر ، ١٩٧١ .

٧ – شرارة ، عبد اللطيف «مي زياده»
سلسلة «أدباؤنا»
دار صادر ، دار بيروت لاتا .

٨ – الشناوي ، كامل «الذين أحبوا مي»
دار المعارف بمصر ١٩٧٢ .

٩ – فهمي ، الدكتور منصور «محاضرات عن مي»
منشورات معهد الدراسات
العربية العليا
الجامعة العربية ، القاهرة .

مجلات

١ – مجلة «المرأة الجديدة» لصاحبتها جوليا طعمه دمشقية :
كتاب « مي في سوريا ولبنان »
وصف الحفلات التكريميـة التي
أقيمت لمي أثناء زيارتها لوطنهـا
صيف ١٩٢٢ .

٢ – مجلة « صوت المرأة » ، عدد خاص بمي زياده ، كانون
الاول ١٩٤٩ .

مقالات عن مي نشرت في الصحف والمجلات

١ ـ البستاني ، فؤاد افرام :
« أثر مي في النقد الأدبي الحديث »
مجلة المكشوف عدد ١٤٨ ، أيار ١٩٣٨ .

٢ ـ الجندي ، أنور
مقالة في « أضواء على الأدب المعاصر »
دار الكتاب العربي للطباعة والنشر ،
القاهرة ١٩٦٨ .

٣ ـ حبيش ، فؤاد
« أين وصلت ثقافتنا في سلم الحضارة »
مجلة المكشوف ، عدد ١٤٨ ،
أيار ١٩٣٨ .

٤ ـ حداد ، فؤاد
« مي الشاعرة الفرنسية في « زهرات حلم »
مجلة المكشوف عدد ١٣٩ ، ٤ آذار
١٩٣٨ .

٥ - دياب ، عبد الحي

« المرأة في حياة العقاد »

دار الشعب ، القاهرة ، ١٩٧٠

ص ٦٣ - ٦٩ .

٦ - الريحاني ، أمين

« قصة مي ، اعتراف واستغفار »

ملحق جريدة النهار ١٩٦٥/١٠/٢٤

ومجلة « الحسناء » عدد ٥٦١ ، ٢٦

أيار ١٩٧٢ .

٧ - الزيات ، أحمد حسن

« من وحي الرسالة » ج ٢ ص ٣٦٣ .

٨ - الطناحي ، طاهر

مقالات في « الهلال » أعداد ديسمبر

١٩٤٧ ، مايو ١٩٤٨ ، يناير ، فبراير ،

ابريل ، ديسمبر ١٩٦٢ ، ابريل ١٩٦٤ .

٩ - الطناحي ، طاهر

« دموع الحب بين الآنسة مي والعقاد »

الهلال ٧ يوليو ١٩٦٤ .

١٠ — عبود ، مارون

مقال عن مي في « جدد وقدماء »
دار الثقافة ، بيروت .

١١ — العقاد ، عامر

« لمحات من حياة العقاد »
دار الشعب بالقاهرة ، ١٩٧٠ ،
ص ١٨٧ — ٢٣٤ .

١٢ — العقاد ، عباس محمود

« رجال حول مي »
الهلال عدد آذار (مارس) ١٩٦٢ .

١٣ — العقاد ، عباس محمود

تحليله لكتاب « الصحائف » في
« مطالعات في الكتب والحياة » .
دار الكتاب العربي ، بيروت ١٩٦٦ .

١٤ — عوّاد ، توفيق يوسف

مقال عن « مي » في جريدة «النهار»
١٩٣٨ نشر في كتاب «فرسان الكلام»
دار الكتاب اللبناني، بيروت ١٩٦٨.

١٥ – الكيالي ، سامي

مقال عن (مي) في مجلة الحديث ، عدد ٦ ، ١٩٣٨ .

١٦ – موسى ، سلامه

« مي زياده » مقال نشر في الهلال ، نيسان ١٩٢٤ .

١٧ – الوكيل ، الدكتور العوضي

« مي ومحبّوها »

الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة

المكتبة الثقافية عدد ٢٨٤ ، تموز ١٩٧٢ .

المحتويات

***

مَيّ زيادَة :

التوهّج وَالأفول

راجَعت المؤلفة جميع مُؤلّفات ميّ من شعريّة وَنثريّة. ثمّ طالعت ما كُتبَ عنها وما قيل فيها. فكان هَذا الكِتاب ثمرة دراسَة تحليليّة لشخصيّة ميّ وأدبها على ضوء النظريات العِلميّة الحَديثة وأصُول النقد الأدبيّ الحَديث، مَعَ محاولة في تقييم إنتاج ميّ وَالإشارة إلى أسرار تفوّقه واستِمرار تأثيره، بأسلوب فيهِ مِن الموضوعيّة وَالتحقيق وإثبات المراجع مَا يجعله مرجعاً لدارسي ميّ وَمتذوّقي أدبهَا.

الناشر

الثمن ١٠ ل.ل.